سُورَةُ المُؤْمِنُونَ

مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مَائَةٌ وَتِسْعُ عَشْرَةَ آيَةً، وَثَمَانِي عَشْرَةَ عِنْدَ الكُوفِيِّينَ

[نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الأَنْبِيَاءِ]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾

﴿قَدْ﴾: نقيضة «لما» هي تثبت المتوقع و«لما» تنفيه، ولا شك أن المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة، وهي الإخبار بثبات الفلاح لهم، فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه، والفلاح: الظفر بالمراد، وقيل: البقاء في الخير، و﴿أَفْلَحَ﴾: دخل في الفلاح، كأبشر: دخل في البشارة، ويقال: أفلحه: أصاره إلى الفلاح، وعليه قراءة طلحة بن مصرف: «أفلح»، على البناء للمفعول، وعنه: «أفلحوا»، على: أكلوني البراغيث، أو على الإبهام والتفسير، وعنه: «أفلح»؛ بضمة بغير واو؛ اجتزاء بها عنها؛ كقوله: [الوافر]

فَلَوْ أَنَّ الأَطِبَّا كَانُ حَوْلِي . . . . . [1]

فإن قلت: ما المؤمن؟

قلت: هو في اللغة المصدق، وأما في الشريعة فقد اختلف فيه على قولين:

أحدهما: أنّ كل من نطق بالشهادتين مواطئاً قلبه لسانه فهو مؤمن.

والآخر: أنه صفة مدح، لا يستحقها إلا البرّ التقيّ دون الفاسق الشقي[2].

---

(١) فلو أن الأطبا كانُ حولي وكان مع الأطباء الأساة

الأصل: كانوا حولي، فقصره وقصر «الأطباء» لضرورة الوزن وهم علماء الطب. والأساة: جمع آس، كالسعاة: جمع ساع، وهم المباشرون للعلاج من الأطباء، من الأسى كالفتى، بمعنى المداواة، والإساء ـ بالكسر ـ: الدواء، ولعله أصل الرواية، كما روي الشفاء، فحقه حرف الألف.

(٢) قال محمود: «اختلف في الإيمان على قولين، أحدهما: أن كل من نطق بالشهادتين مواطئاً قلبه لسانه فقد اتصف بالإيمان. والآخر: أنه صفة مدح لا يستحقها إلا للبر التقي دون الفاسق الشقي قال أحمد: والأول مذهب الأشعرية، والثاني مذهب المعتزلة، والموحد الفاسق عندهم لا مؤمن =

الخشوع في الصلاة: خشية القلب وإلباد البصر ـ عن قتادة: وهو إلزامه موضع السجود، وعن النبي ـ ﷺ ـ: أنه كان يصلي رافعاً بصره إلى السماء، فلما نزلت هذه الآية، رمى ببصره نحو مسجده (٩٩٤)، وكان الرجل من العلماء إذا قام إلى الصلاة، هاب الرحمن أن يشدّ بصره إلى شيء، أو يحدّث نفسه بشأن من شأن الدنيا، وقيل: هو جمع الهمة لها، والإعراض عما سواها، ومن الخشوع: أن يستعمل الآداب، فيتوقى كفّ الثوب، والعبث بجسده وثيابه، والالتفات، والتمطي، والتثاؤب، والتغميض، وتغطية الفم، والسدل، والفرقعة، والتشبيك، والاختصار، وتقليب الحصا، روي عن النبي ـ ﷺ ـ أنه أبصر رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: «لَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ خَشَعَتْ جَوَارِحُهُ» (٩٩٥)، ونظر الحسن إلى رجل يعبث بالحصا وهو يقول: اللهمّ، زوجني الحور العين، فقال: بئس الخاطب أنت! تخطب وأنت تعبث.

---

٩٩٤ ـ أخرجه الحاكم (٢/ ٣٩٣) من حديث أيوب عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ فطأطأ رأسه.

ثم قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، لولا خلاف فيه على محمد فقد قيل عنه مرسلاً ولم يخرجاه اهـ.

والمرسل رواه أبو داود في المراسيل رقم (٤٥) والبيهقي في السنن (٢/ ٢٨٣) كتاب الصلاة، باب لا يجاوز بصره موضع سجوده، والطبري في تفسيره (٩/ ١٩٧) رقم (٢٥٤١٤)، وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٤) وعزاه لسعيد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، وعزاه الزيلعي للواحدي في أسباب النزول.

قال الحافظ: أخرجه الحاكم من رواية ابن سيرين عن أبي هريرة، لكن قال: «فطأطأ رأسه» وقال: صحيح إلا أنه روي مرسلاً اهـ. والمرسل أخرجه أبو داود والطبري عن ابن سيرين عن النبي ـ ﷺ ـ وقال: فيه نظر هكذا، وأخرجه الواحدي في الأسباب من طريق ابن علية، عن أيوب. عن ابن سيرين موصولاً. انتهى.

٩٩٥ ـ عزاه الحافظ والزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف وكذا السيوطي في الدر (٥/ ٥) والسيوطي في =

= ولا كافر. ولو لم يبن المعتزلة على هذا المعتقد تحريم الجنة على الموحد الفاسق بناء على أنه لا يندرج في وعد المؤمنين، لكان البحث معهم لفظياً؛ ولكن رتبوا على ذلك أمراً عظيماً من أصول الدين وقواعده. وقد نقل القاضي عنهم في رسالة الإيمان خبطاً طويلاً، فنقل عن قدمائهم كعمرو بن عبيد وطبقته أن الإيمان هو التصديق بالقلب وجميع فرائض الدين فعلاً وتركاً. ونقل عن أبي الهذيل العلاف أن الإيمان هو جميع فرائض الدين ونوافله. ومختصر دليل القاضي لأهل السنة أن الإيمان لغة هو مجرد التصديق اتفاقاً، فوجب أن يكون كذلك شرعاً، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ مع سلامته عن معارضة النقل، فإنه لو كان لنبيه عليه الصلاة والسلام ولو بينه لنقل لأنه مما يبتني عليه قاعدة الوعد والوعيد، ولم ينقل؛ لأن النقل إما آحاد أو تواتر إلى آخر مادته.

فإن قلت: لم أضيفت الصلاة إليهم؟

قلت: لأنّ الصلاة دائرة بين المصلي والمصلى له، فالمصلي هو المنتفع بها وحده وهي عدّته وذخيرته فهي صلاته: وأمّا المصلى له، فغنيّ متعال عن الحاجة إليها والانتفاع بها.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾

اللغو: ما لا يعنيك من قول أو فعل، كاللعب والهزل وما توجب المروءة إلغاءه وإطراحه، يعني: أنّ بهم من الجدّ ما يشغلهم عن الهزل.

لما وصفهم بالخشوع في الصلاة، أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو؛ ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾

الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى، فالعين: القدر الذي يخرجه المزكي من النصاب إلى الفقير، والمعني: فعل المزكي الذي هو التزكية، وهو الذي أراده الله، فجعل المزكين ٢/ ٣٣أ فاعلين له ولا يسوغ فيه غيره؛ لأنه ما من مصدر إلا يعبر عن معناه بالفعل ويقال لمحدثه: فاعل، تقول للضارب: فاعل الضرب، وللقاتل: فاعل القتل، وللمزكي: فاعل التزكية، وعلى هذا الكلام كله والتحقيق فيه أنك تقول في جميع الحوادث: من فاعل هذا؟ فيقال لك: فاعله الله أو بعض الخلق[1]، ولم يمتنع الزكاة الدالة على العين أن يتعلق

= الجامع الصغير رقم (٧٤٤٧ ـ منحة) كلهم للحكيم الترمذي في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة وهو موضوع.

قال الحافظ: أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر في السادس والأربعين بعد المائة من حديث أبي هريرة وفيه سليمان بن عمرو وهو أبو داود والنخعي أحد من اتهم بوضع الحديث، وفي شرح البخاري لزين الدين ابن المنير: عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال لعائشة: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه». انتهى.

---

(١) قال محمود: «الزكاة تطلق ويراد بها العين المخرجة، وتطلق ويراد بها فعل المزكي الذي هو التزكية ويتعين ههنا أن يكون المراد التزكية لقوله (فاعلون) إذ العين المخرجة لم يفعلها المزكي، ثم ضبط المصدر على الإطلاق بأنه الذي يصدق عليه أنه فعل الفاعل؛ فعلى هذا تكون العين المخرجة مصدراً بالنسبة إلى الله تعالى، وكذلك السموات والأرض وكل مخلوق من جوهر وعرض، قال: فجميع الحوادث إذا قيل من فاعلها؟ فيقال: الله أو بعض الخلق» قال أحمد: ويقول السني: فاعل جميعها هو الله وحده لا شريك له، ولكن إذا سئل بصيغة مشتقة من الفعل على طريقة اسم الفاعل، مثل أن يقال له: من القائم؟ من القاعد؟ أجاب بمن خلق الله الفعل على يديه، وجعله محلاً له، =

بها فاعلون، لخروجها من صحة أن يتناولها الفاعل؛ ولكن لأنّ الخلق ليسوا بفاعليها؛ وقد أنشد لأمية بن أبي الصلت: [من المنسرح]

الْـمُـطْـعِـمُـونَ الـطَّـعَـامَ فِـي الـسَّـنَـة الأَزْمَـةِ الْـفَـاعِـلُـونَ لِـلـزَّكَـوَات[1]

ويجوز أن يراد بالزكاة: العين، ويقدّر مضاف محذوف وهو الأداء، وحمل البيت على هذا أصحّ؛ لأنها فيه مجموعة.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧﴾

﴿عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾: في موضع الحال، أي: الأوّالين على أزواجهم، أو قوّامين عليهنّ، من قولك: كان فلان على فلانة فمات عنها فخلف عليها فلان؛ ونظيره: كان زياد على البصرة، أي: والياً عليها؛ ومنه قولهم: فلانة تحت فلان؛ ومن ثمة سميت المرأة فراشاً، والمعنى: أنهم لفروجهم حافظون في كافة الأحوال، إلا في حال تزوّجهم أو تسريهم، أو تعلق (على) بمحذوف يدل عليه: (غير ملومين)؛ كأنه قيل: يلامون إلا على أزواجهم، أي: يلامون على كل مباشر إلا على ما أطلق لهم؛ فإنهم غير ملومين عليه، أو تجعله صلة لحافظين، من قولك: احفظ عليّ عنان فرسي، على تضمينه معنى النفي، كما ضمن قولهم: نشدتك بالله إلا فعلت معنى: ما طلبت منك إلا فعلك[2].

فإن قلت: هلا قيل: من ملكت؟

قلت: لأنه أريد من جنس العقلاء ما يجري مجرى غير العقلاء وهم الإناث[3] جعل

= كزيد وعمرو.

(١) لأمية بن أبي الصلت. والأزم: الجدب، والأزمة: الشديدة المجدبة. والزكوات: جمع زكاة، تطلق على القدر المخرج من المال وعلى الإخراج، فالمعنى على الأول: المؤدون للزكوات. وعلى الثاني: الفاعلون لذلك الإخراج، والأول أوجه؛ لأن المصدر لا يجمع إلا بتأويل الأنواع أو المرات.
ينظر: البحر (٦/٣٩٦)، الدر المصون (٥/١٧٣).

(٢) قال السمين الحلبي: هذه وجوه متكلفة ظاهر فيها العجمة، قلت وأي عجمة في ذلك، على أن الشيخ جعلها متعلقة بـ «حافظون» على ما ذكره من التضمين وهذالا يصح له، إلا بأن يرتكب وجهاً منها، وهو التأويل بالنفي كنشدتك الله لأنه استثناء مفرغ ولا يكون إلا بعد نفي أو ما في معناه. انتهى. الدر المصون.

(٣) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وقوله وهم الإناث ليس بجيد، لأن هم مختص بالذكور، فكان ينبغي أن يقول وهو على لفظ «ما» أو وهن على معنى ما قلت والجواب عنه أن الضمير عائد على =

المستثنى حدًّا أوجب الوقوف عنده، ثم قال: فمن أحدث ابتغاء وراء هذا الحدّ مع فسحته واتساعه، وهو إباحة أربع من الحرائر، ومن الإماء ما شئت، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ﴾: الكاملون في العدوان المتناهون فيه.

فإن قلت: هل فيه دليل على تحريم المتعة؟

قلت: لا؛ لأنّ المنكوحة نكاح المتعة من جملة الأزواج إذا صحّ النكاح.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾

وقرئ: لأمانتهم، سمي الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهداً؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، وقال: ﴿وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٧]؛ وإنما تؤدّى العيون لا المعاني، ويخان المؤتمن عليه، لا الأمانة في نفسها، والراعي: القائم على الشيء بحفظ وإصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية، ويقال: من راعي هذا الشيء؟ أي: متوليه وصاحبه، ويحتمل العموم في كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله ـ تعالى ـ ومن جهة الخلق، والخصوص فيما حملوه من أمانات الناس وعهودهم.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾

وقرئ: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾.

فإن قلت: كيف كرّر ذكر الصلاة أوّلاً وآخراً؟

قلت: هما ذكران مختلفان فليس بتكرير، وصفوا أوّلاً بالخشوع في صلاتهم، وآخراً بالمحافظة عليها؛ وذلك ألاّ يسهوا عنها، ويؤدّوها في أوقاتها، ويقيموا أركانها، ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها، وبما ينبغي أن تتم به أوصافها، وأيضاً فقد وحدت أوّلاً؛ ليفاد الخشوع في جنس الصلاة أيّ صلاة كانت، وجمعت آخراً؛ لتفاد المحافظة على أعدادها، وهي: الصلوات الخمس، والوتر، والسنن المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة، والعيدين والجنازة، والاستسقاء، والكسوف والخسوف، وصلاة الضحى، والتهجد، وصلاة التسبيح، وصلاة الحاجة، وغيرها من النوافل.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾

= العقلاء فقوله وهم أي العقلاء والإناث، انتهى. الدر المصون.

أي: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: الجامعون لهذه الأوصاف، ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾: الأحقاء بأن يسموا ورّاثاً دون من عداهم، ثم ترجم الوارثين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾: فجاء بفخامة وجزالة لإرثهم لا تخفى على الناظر، ومعنى الإرث: ما مرّ في سورة مريم، أنث الفردوس على تأويل الجنة، وهو: البستان الواسع الجامع لأصناف الثمر، روي أنّ الله ـ عز وجلّ ـ بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وجعل خلالها المسك الأذفر، وفي رواية: ولبنة من مسك مذرّى وغرس فيها من جيد الفاكهة وجيد الريحان.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾

السلالة: الخلاصة؛ لأنها تسلّ من بين الكدر، و«فعالة»: بناء للقلة كالقلامة والقمامة، وعن الحسن: ماء بين ظهراني الطين.

فإن قلت: ما الفرق بين من ومن؟

قلت: الأوّل: للابتداء، والثاني: للبيان؛ كقوله: ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾.

فإن قلت: ما معنى: ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾: الإنسان نطفة؟

قلت: معناه: أنه خلق جوهر الإنسان أوّلاً طيناً، ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة، القرار: المستقرّ، والمراد: الرحم، وصفت بالمكانة التي هي صفة المستقرّ فيها؛ كقولك: طريق سائر، أو بمكانتها في نفسها؛ لأنها مكنت بحيث هي وأحرزت، قرئ: «عظماً فكسونا العظم»، و«عظاماً فكسونا العظام»، و«عظماً فكسونا العظام»، و«عظاماً فكسونا العظم»: وضع الواحد مكان الجمع لزوال اللبس؛ لأنّ الإنسان ذو عظام كثيرة، ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ أي: خلقاً مباينا للخلق الأوّل مباينة ما أبعدها؛ حيث جعله حيواناً وكان جماداً، وناطقاً وكان أبكم، وسميعاً وكان أصم، وبصيراً وكان أكمه، وأودع باطنه وظاهره ـ بل كل ٢/ ٣٣ب عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه ـ عجائب فطرة وغرائب حكمة، لا تدرك بوصف الواصف ولا تبلغ بشرح الشارح، وقد احتج به أبو حنيفة فيمن غصب بيضة فأفرخت عنده، قال: يضمن البيضة ولا يرد الفرخ؛ لأنه خلق آخر سوى البيضة، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾: فتعالى أمره في قدرته وعلمه، ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ أي: أحسن المقدّرين تقديراً، فترك ذكر المميز؛ لدلالة الخالقين عليه؛ ونحوه: طرح المأذون فيه في قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ

يُقَـٰتَلُونَ﴾ [الحج: ٣٩]، لدلالة الصلة، وروي عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ لما بلغ قوله خلقاً آخر، قال: فتبارك الله أحسن الخالقين (٩٩٦)، وروي أنّ عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب للنبي ـ ﷺ ـ فنطق بذلك قبل إملائه، فقال له النبي ـ ﷺ ـ: «اُكْتُبْ هٰكَذَا نَزَلَتْ» ح، فقال عبد الله: إن كان محمد نبيًّا يوحى إليه، فأنا نبيّ يوحى إليّ، فلحق بمكة كافراً، ثم أسلم يوم الفتح (٩٩٧).

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾

قرأ ابن أبي عبلة وابن محيصن: «لمائتون»، والفرق بين الميت والمائت: أنّ الميت كالحي صفة ثابتة، وأمّا المائت، فيدل على الحدوث، تقول: زيد مائت الآن، ومائت غداً؛ كقولك: يموت؛ ونحوهما: ضيق وضائق، في قوله تعالى: ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢]، جعل الإماتة التي هي إعدام الحياة، والبعث الذي هو إعادة ما يفنيه ويعدمه: دليلين ـ أيضاً ـ على اقتدار عظيم بعد الإنشاء والاختراع.

فإن قلت: فإذاً لا حياة إلا حياة الإنشاء وحياة البعث.

قلت: ليس في ذكر الحياتين نفي الثالثة وهي حياة القبر، كما لو ذكرت ثلثي ما عندك وطويت ذكر ثلثه لم يكن دليلاً على أن الثلث ليس عندك ـ وأيضاً ـ فالغرض ذكر هذه الأجناس الثلاثة: الإنشاء، والإماتة، والإعادة، والمطوي ذكرها من جنس الإعادة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

الطرائق: السموات؛ لأنه طورق بعضها فوق بعض كمطارقة النعل، وكل شيء فوقه مثله فهو طريقة، أو لأنها طرق الملائكة ومتقلباتهم، وقيل: الأفلاك؛ لأنها طرائق الكواكب في مسيرها: أراد بالخلق السموات، كأنه قال: خلقناها فوقهم، ﴿وَمَا كُنَّا﴾: عنها، ﴿غَـٰفِلِينَ﴾: وعن حفظها وإمساكها أن تقع فوقهم بقدرتنا، أو أراد به الناس وأنه إنما خلقها فوقهم ليفتح عليهم الأرزاق والبركات منها، وينفعهم بأنواع منافعها، وما كان غافلاً

---

٩٩٦ ـ حديث أنس قال: قال عمر: وافقت ربي في أربع فذكر الحديث.
تقدم في البقرة في قوله: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.
قال الحافظ: وفي الباب عن أنس قال: قال عمر: وافقت ربي في أربع فذكر الحديث ـ وفيه: فنزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾، إلى قوله: ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾. فقلت: تبارك الله أحسن الخالقين فنزلت. انتهى.

٩٩٧ ـ قال الزيلعي (٢/ ٤٠١): «غريب». وعزاه للثعلبي والواحدي في أسباب النزول عن ابن عباس.
قال الحافظ: كذا ذكره الثعلبي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وعزاه الواحدي إلى الكلبي. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. انتهى.

عنهم وما يصلحهم.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿بِقَدَرٍ﴾: بتقدير يسلمون معه من المضرة، ويصلون إلى المنفعة، أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم ومصالحهم، ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ كقوله: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]، وقيل: جعلناه ثابتاً في الأرض، وقيل: إنها خمسة أنهار: سيحون نهر الهند، وجيحون: نهر بلخ، ودجلة والفرات: نهرا العراق، والنيل: نهر مصر، أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة، فاستودعها الجبال، وأجراها في الأرض، وجعل فيها منافع للناس في أصناف معايشهم، وكما قدر على إنزاله فهو قادر على رفعه وإزالته، وقوله: ﴿عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ﴾: من أوقع النكرات وأحزها للمفصل، والمعنى: على وجه من وجوه الذهاب به وطريق من طرقه، وفيه إيذان باقتدار المذهب، وأنه لا يتعايى عليه شيء إذا أراده، وهو أبلغ في الإيعاد؛ من قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك: ٣٠]، فعلى العباد أن يستعظموا النعمة في الماء ويقيدوها بالشكر الدائم، ويخافوا نفارها إذا لم تشكر.

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾

خصّ هذه الأنواع الثلاثة؛ لأنها أكرم الشجر وأفضلها وأجمعها للمنافع، ووصف النخل والعنب بأنّ ثمرهما جامع بين أمرين: بأنه فاكهة يتفكه بها، وطعام يؤكل رطباً ويابساً، رطباً وعنباً، وتمراً وزبيباً، والزيتون بأنّ دهنه صالح للاستصباح والاصطباغ جميعاً، ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ من قولهم: يأكل فلان من حرفة يحترفها، ومن ضيعة يغتلها، ومن تجارة يتربح بها: يعنون أنها طعمته وجهته التي منها يحصل رزقه، كأنه قال: وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعايشكم، منها ترتزقون وتتعيشون، ﴿وَشَجَرَةً﴾: عطف على جنات، وقرئت مرفوعة على الابتداء، أي: ومما أنشىء لكم شجرة، ﴿طُورِ سَيْنَآءَ﴾: وطور سينين، لا يخلو: إما أن يضاف فيه الطور إلى بقعة اسمها سيناء وسينون، وإمّا: أن يكون اسماً للجبل مركباً من مضاف ومضاف إليه، كامرىء القيس، وكبعلبك، فيمن أضاف، فمن كسر سين سيناء، فقد منع الصرف؛ للتعريف والعجمة، أو التأنيث؛ لأنها بقعة، وفعلاء لا يكون ألفه للتأنيث كعلباء وحرباء، ومن فتح فلم يصرف؛ لأنّ الألف للتأنيث كصحراء، وقيل: هو جبل فلسطين، وقيل: بين مصر وأيلة، ومنه نودي موسى ـ عليه السلام ـ وقرأ الأعمش: سينا على القصر، ﴿بِٱلدُّهْنِ﴾:

في موضع الحال، أي: تنبت وفيها الدهن، وقرئ: تنبت. وفيه وجهان.

أحدهما: أن أنبت بمعنى نبت؛ وأنشد لزهير [من الطويل]:

رَأَيْتُ ذَوِي الْحَاجَاتِ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ قَطِيناً لَهُمْ حَتَّى إِذَا أَنْبَتَ الْبَقْلُ[1]

والثاني: أنّ مفعوله محذوف، أي: تنبت زيتونها وفيه الزيت، وقرئ: «تنبت»: بضم التاء وفتح الباء، وحكمه حكم ٢/ ٣٤أ تنبت، وقرأ ابن مسعود: تخرج الدهن وصبغ الآكلين، وغيره: تخرج بالدهن، وفي حرف أبيّ: «تثمر بالدهن»، وعن بعضهم: «تنبت بالدهان»، وقرأ الأعمش: «وصبغاً»، وقرئ: «وصباغ»، ونحوهما: دبغ ودباغ، والصبغ: الغمس للائتدام، وقيل: هي أوّل شجرة نبتت بعد الطوفان، ووصفها الله ـ تعالى ـ بالبركة في قوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [النور: ٣٥].

---

(١) إذا السنة الشهباء بالناس أجحفت ونال كرام الناس في الجحرة الأكل
رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم قطيناً بها حتى إذا أنبت البقل
هنالك إن يستخولوا المال يخولوا وإن سئلوا يعطوا وإن يسروا يغلوا
وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل

لزهير بن أبي سلمى يمدح سنان بن أبي حارثة، والشهباء: الفرس يخالط سوادها بياض، شبه بها السنة المجدبة لكثرة بياض أرضها وخلوها عن سواد النبات والأمطار. أو لاختلاط نور الغنى فيها بظلمة الفقر. أجحفت بالناس: أي ذهبت بهم ومحقت عنهم آثار الغنى، والإسناد مجاز عقلي. والجحرة ـ بتقديم الجيم المفتوحة ـ: السنة المجدبة وروي: في الجحرة. وأصلها بالتحريك، فسكونها لغة أو ضرورة وهي شدة الشقاء. ويجوز أن تقرأ بالضم بمعنى البيت، أي: ونال الأكل كرام الناس. ووصلهم داخل بيوتهم لبخلهم تلك السنة. ويروى: كرام المال. والمعنى أن كرائم الأموال نالها التأكل والتنقص في تلك السنة لجدبها. ورأيت: جواب إذا. وذوي الحاجات: كناية عن الفقراء، حول بيوتهم: أي سنان وقومه. قطيناً: أي مقيمين، فهو يطلق على الواحد والمتعدد. وقيل إنه جمع، ويروى قطيناً لهم: أي مساكنين لهم عند البيوت، وذلك كناية عن كرمهم، حتى إذا أنبت البقل: أي نبت النبات الرطب وظهر الخصب، فهنالك: أي في ذلك الزمان إن يسألهم أحد أن يخولوه مالاً كثيراً يخولوه: أي يولوه عليه. وإن سئلوا مالاً قليلاً يعطوا السائل. ويروى: إن يستخبلوا المال يخبلوا. بالموحدة، يستعر: أي منهم أحد إبلهم للانتفاع بألبانها وأوبارها زمن الجدب ثم يردها: أعاروه، وإن سألهم الإعطاء من غير رد أعطوه فلا يردون سائلاً. وأن يسروا: أي لعبوا الميسر، يغلوا: أي يجعلوا الخطر غالياً كثيراً لعدم خوفهم على الفقراء لأن المال كثير بخلاف زمن الجدب، ويجوز أن يقرأ: وإن يسروا أي أعطوا بلا سؤال، يفلوا بالفاء. أي يتفقدوا الفقراء ويعطوهم، يقال: يسر كوعد: لعب الميسر، ويسر كترب وتعب: لأن ورق ورمق. وروي: يسألوا ويسروا بالمضارع. والمقامات: المجامع من الناس. وروي: وجوهها. وعلى كل فالضمير للمقامات. والأندية ـ جمع النادي ـ بمعنى الكرم، على غير قياس، ينتابها: أي يجري عليها نوبة بعد نوبة قولهم وفعلهم. أو يتداولها قول الناس وفعلهم. ويحتمل أنها جمع ناد بمعنى متحدث القوم. أو ندى على فعيل كذلك. ينتابها: أي يجيئها نوبة بعد نوبة القول والفعل، أي: الصالحات.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قرئ: «تسقيكم»: بتاء مفتوحة، أي: تسقيكم الأنعام، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: تتعلق بها منافع من الركوب والحمل وغير ذلك، كما تتعلق بما لا يؤكل لحمه من الخيل والبغال والحمير، وفيها منفعة زائدة، وهي الأكل الذي هو انتفاع بذواتها، والقصد بالأنعام إلى الإبل؛ لأنها هي المحمول عليها في العادة، وقرنها بالفلك ـ التي هي السفائن ـ لأنها سفائن البرّ؛ قال ذو الرُّمّة [من الطويل]:

. . . . . سَفِينَةُ بَرٍّ تَحْتَ خَدِّي زِمَامُهَا[1]

يريد صيدحه[2].

---

(١) ألا خيلت مي وقد نام صحبتي فما نفر التهويم إلا سلامها
طروقاً وجلب الرحل مشدودة به سفينة بر تحت خدي زمامها
أنيخت فألقت بلدة فوق بلدة قليلاً بها الأصوات إلا بغامها

لذي الرمة، يقول: خيلت مي، أي: بعثت خيالها وأرتني إياه، وسلمت علي في منامي. والحال أنه قد نام أصحابي، والصحبة كالعصبة والرفقة، ونسب النوم إليهم دونه: لأن نومه تهويم أي فتور وغفلة أول النوم فقط. والتهويم أيضاً: تمايل الرأس من النعاس، أو لأنه يتذكرها فكأنه لم ينم. ويروى: ذو الكرى بدل صحبتي، فما نفر التهويم وطرده عني إلا سلامها علي. ويروى:

ألا طرقتنا ميةٌ بنت منذر فما أرّق النيّام إلا سلامها

وأرق: أسهر. والنيام: جمع نائم، وقياسه نوام، فقلب ياء شذوذاً. والطروق: الإتيان ليلاً، وهو نصب على المصدر من خيلت، لتلافيها معنى. وقيل: الطروق ـ بالفتح ـ: الناقة التي بلغت أن يطرقها الفحل، وهو مفعول خيلت. والأوجه أنه حال من فاعله هذا، ولعله على التشبيه. وجلب الرحل ـ بالضم، وبالكسر ـ: عيدانه، أي: والحال أن عيدان الرحل مشدودة بها ناقة عظيمة كالسفينة. فاستعارها لها على طريق التصريح، وإضافتها للبر قرينة للاستعارة. وفيه أنها في البر تقوم مقام السفينة في البحر. وأنها تقابلها، والزمام تجريد، أي: زمامها تحت خدي وأنا نائم. والبلدة من الناقة: ما لاقى الأرض عند الإناخة، وتطلق على الصدر. والبلدة الأرض الصلبة. والبغام: صوت الظبي، أي: أنختها فألقت عظاماً صلبة كالأرض، فاستعارها لها على طريق التصريح، فوق أرض صلبة حال كون تلك الأرض قليلاً فيها الأصوات إلا بغام الناقة، أي: صوتها الشبيه بصوت الظبي، لأنه كان حنيناً. ومجيء الحال من النكرة بلا تأخير ولا نفي ولا تخصيص شاذ. ويروى. قليل ـ بالجر ـ على الصفة. وعلى كل فالأصوات فاعل له، ورفع المستثنى على الاتباع؛ لأن قليلاً في معنى النفي، أي: ليس فيها صوت إلا البغام. وقيل: «إلا» هنا بمعنى غير، فهي صفة للأصوات لأنه يشبه النكرة، ولما تعذر ظهور الإعراب عليها ظهر على ما بعدها.

ينظر: ديوانه ص (١٠٠٤)، وأساس البلاغة (سفن).

(٢) قوله «يريد صيدحه» أي: ناقته المسماة بصيدح. (ع)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿غَيْرُهُۥٓ﴾: بالرفع على المحل، وبالجر على اللفظ، والجملة استئناف تجري مجرى التعليل للأمر بالعبادة، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: أفلا تخافون أن ترفضوا عبادة الله الذي هو ربكم وخالقكم ورازقكم، وشكر نعمته التي لا تحصونها واجب عليكم، ثم تذهبوا فتعبدوا غيره مما ليس من استحقاق العبادة: في شيء، ﴿أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾: أن يطلب الفضل عليكم ويرأسكم؛ كقوله تعالى: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٧٨]، ﴿بِهَٰذَآ﴾: إشارة إلى نوح ـ عليه السلام ـ أو إلى ما كلمهم به من الحث على عبادة الله، أي: ما سمعنا بمثل هذا الكلام، أو بمثل هذا الذي يدعى وهو بشر أنه رسول الله، وما أعجب شأن الضلال لم يرضوا للنبوّة ببشر وقد رضوا للإلهية بحجر، وقولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾: يدل على أنهم وآباؤهم كانوا في فترة متطاولة، أو تكذبوا في ذلك؛ لانهماكهم في الغي، وتشمرهم لأن يدفعوا الحق بما أمكنهم وبما عنّ لهم، من غير تمييز منهم بين صدق وكذب؛ ألا تراهم: كيف جننوه وقد علموا أنه أرجح الناس عقلاً وأوزنهم قولاً، والجنة: الجنون أو الجنّ، أي: به جنّ يخبلونه، ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: احتملوه واصبروا عليه إلى زمان، حتى ينجلي أمره عن عاقبة، فإن أفاق من جنونه وإلا قتلتموه.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

في نصرته إهلاكهم، فكأنه قال: أهلكهم بسبب تكذيبهم إياي، أو انصرني بدل ما كذبوني، كما تقول: هذا بذاك، أي: بدل ذاك ومكانه، والمعنى: أبدلني من غمّ تكذيبهم، سلوة النصرة عليهم، أو انصرني بإنجاز ما وعدتهم من العذاب، وهو ما كذبوه فيه حين قال لهم: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء: ١٣٥]، ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾: بحفظنا وكلاءتنا، كأن معه من الله حفاظاً يكلؤونه بعيونهم؛ لئلا يتعرض له ولا يفسد عليه

مفسد عمله، ومنه قولهم: عليه من الله عين كالئة، ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي: نأمرك كيف تصنع ونعلمك، روي أنه أوحى إليه أن يصنعها على مثال جؤجؤ الطائر، روي أنه قيل لنوح ـ عليه السلام ـ: إذا رأيت الماء يفور من التنور، فاركب أنت ومن معك في السفينة، فلما نبع الماء من التنور، أخبرته امرأته فركب، وقيل: كان تنور آدم ـ عليه السلام ـ وكان من حجارة، فصار إلى نوح، واختلف في مكانه؛ فعن الشعبي: في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كندة، وكان نوح عمل السفينة وسط المسجد، وقيل: بالشام بموضع يقال له: عين وردة، وقيل: بالهند، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: التنور وجه الأرض، وعن قتادة: أشرف موضع في الأرض، أي: أعلاه، وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: فار التنور: طلع الفجر، وقيل: معناه: أن فوران التنور كان عند تنوير الفجر، وقيل: هو مثل؛ كقولهم: حمي الوطيس، والقول: هو الأوّل، يقال: سلك فيه: دخله، وسلك غيره، وأسلكه؛ قال [من البسيط]:

حَتَّىٰ إِذَا أَسْلَكُوهُمْ فِي قَتَائِدِهِ[1] . . . . . .

﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾: من كل أمّتي زوجين، وهما أمة الذكر وأمّة الأنثى، كالجمال والنوق، والحصن والرماك، ﴿ٱثْنَيْنِ﴾: واحدين مزدوجين، كالجمل والناقة، والحصان والرمكة، روي أنه لم يحمل إلا ما يلد ويبيض، وقرئ: «من كل»: بالتنوين، أي: من كل أمّة زوجين، واثنين: تأكيد وزيادة بيان.

جيء بعلى مع سبق الضارّ، كما جيء باللام مع سبق النافع؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [الصافات: ١٧١]، ونحوه قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقول عمر ـ رضي الله عنه ـ: ليتها كانت كفافاً، لا عليّ ولا لي.

فإن قلت: لم نهاه عن الدعاء لهم بالنجاة؟

---

(١) حتى إذا أسلكوهم في قتائده شلا كما تطرد الجمالة الشرد

لعبد مناف بن ربع الهذلي، يصف قوماً أغير عليهم فدفعوا العدو حتى أدخلوه في قتائده، وهي ثنية بعينها، أو عقبه بعينها، أي: في طرائقها. وسلكه في كذا وأسلكه أيضاً كما هنا: أدخله فيه. وروي: سلكوهم أيضاً. وشلا: أي طرداً نصب بسلوكهم، لأن فيه معنى طردوهم: وإذا: حرف زائد لا جواب له، لأن البيت آخر القصيد كما في الصحاح. وقيل «شلا» هو جوابه، فهو نصب بمحذوف، أي: حبسوا بها حبساً، لكن لا يلائم التشبيه في قوله «كما تطرد» إلا أن يرجع لسلوكهم. والجمالة: جمع جمال وهو صاحب الجمل. والشرد ـ بفتحتين ـ: الإبل المتشرة، أو بضمتين: جمع شرود كصبور.

قلت: لما تضمنته الآية من كونهم ظالمين، وإيجاب الحكمة أن يغرقوا لا محالة؛ لما عرف من المصلحة في إغراقهم، والمفسدة في استبقائهم، وبعد أن أملى لهم الدهر المتطاول فلم يزيدوا إلا ضلالاً، ولزمتهم الحجة البالغة لم يبق إلا أن يجعلوه عبرة للمعتبرين، ولقد بالغ في ذلك حيث أتبع النهي عنه، الأمر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم؛ كقوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ / [الأنعام: ٤٥]، ثم أمره أن يدعوه بدعاء هو أهم وأنفع له، وهو طلب أن ينزله في السفينة أو في الأرض عند خروجه منها، منزلاً يبارك له فيه ويعطيه الزيادة في خير الدارين، وأن يشفع الدعاء بالثناء عليه المطابق لمسألته؛ وهو قوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

فإن قلت: هلا قيل: فقولوا؛ لقوله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ﴾؛ لأنه في معنى: فإذا استويتم؟

قلت: لأنه نبيهم وإمامهم، فكان قوله قولهم، مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوّة وإظهار كبرياء الربوبية، وأن رتبة تلك المخاطبة لا يترقى إليها إلا ملك أو نبيّ، وقرئ: «منزلا»: بمعنى: إنزالاً، أو موضع إنزال؛ كقوله: ليدخلنهم مدخلاً يرضونه، ﴿إِنَّ﴾: هي المخففة من الثقيلة، واللام: هي الفارقة بين النافية وبينها في المعنى، وإن الشأن والقصة، ﴿كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي: مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد، أو مختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من يعتبر ويذكر؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر: ١٥].

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾: هم عاد قوم هود: عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وتشهد له حكاية الله ـ تعالى ـ قول هود: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، ومجيء قصة هود على أثر قصة نوح في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء.

فإن قلت: حق أرسل أن يعدى بإلى، كأخواته التي هي: وجه، وأنفذ، وبعث، فما باله عدّى في القرآن بإلى تارة، وبفي أخرى؛ كقوله ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ﴾ [الرعد: ٣٠]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: ٣٤]، ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا﴾ أي: في عاد، وفي وموضع آخر: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥]؟

قلت: لم يعدّ بفي كما عدّى بإلى، ولم يجعل صلة مثله، ولكن الأمّة أو القرية جعلت موضعاً للإرسال؛ كما قال رؤبة [من السريع أو الرجز]:

أَرْسَلْتُ فِيهَا مُصْعَباً ذَا إِقْحَامْ[1]

. . . .

وقد جاء «بعث» على ذلك في قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١﴾ [الفرقان: ٥١]، ﴿أَنِ﴾ مفسرة لأرسلنا، أي: قلنا لهم على لسان الرسول: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝٣٣ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٣٤﴾

فإن قلت: ذكر مقال قوم هود في جوابه في سورة الأعراف وسورة هود بغير واو: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦]، ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣]، وههنا مع الواو، فأي فرق بينهما؟

قلت: الذي بغير واو على تقدير سؤال سائل قال: فما قال قومه؟ فقيل له: قالوا كيت وكيت، وأما الذي مع الواو، فعطف لما قالوه على ما قاله، ومعناه: أنه اجتمع في الحصول هذا الحق وهذا الباطل، وشتان ما هما، ﴿بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾: بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب؛ كقولك: يا حبذا جوار مكة، أي: جوار الله في مكة.

حذف الضمير، والمعنى: من مشروبكم، أو حذف منه؛ لدلالة ما قبله عليه، ﴿إِذًا﴾: واقع في جزاء الشرط، وجواب للذين قاولوهم من قومهم[2]، أي: تخسرون عقولكم وتغبنون في آرائكم.

---

(١) أرسلت فيها مصعباً ذا إقحام　　　طبًّا فقيها بذوات الإبلام
لعطاء السندي. ويقال: أصعب الجمل فهو مصعب، إذا صار صعباً لا يركب. والإقحام: الدخول في الشيء بلا تمهل ولا روية. ويروى: أرسلت فيها مقرما ذا تشمام. وأقرمته: شوقته إلى الضراب. ونحوه: ذا تشمام، أي: يتشمم رائحة الناقة التائقة للضراب فيعرفها. والطب ـ مثلث ـ: الطبيب الحاذق. وأبلمت الناقة إبلاماً: إذا ورم فرجها من شدة الشهوة إلى الضراب. والبلم ـ كسبب ـ: اسم منه. ويجوز أن ما هنا أبلام كأسباب، فالمعنى: أنه أرسل في الإبل فحلاً كريماً يقدم عليها من غير تلبث. أو يتشممها ويتعرفها حاذقاً عارفاً بالنوق التائقة إليه. ويجوز أن المعنى: أرسلت في تلك القضية رجلاً كالجمل الشديد، ذا إقدام على الأمر بجراءة، فقيهاً عارفاً بمعالجة الأشياء الصعبة ذوات الأعضال، وبحل مشكلاتها، فهو في غاية المعرفة والتجربة.
ينظر: أساس البلاغة (فقه).

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ وليس واقعاً في جزاء الشرط بل واقعاً بين إنكم والخبر، وإنكم والخبر ليس جزاء للشرط بل ذلك جواب للقسم المحذوف، قيل إن الشرعية ولو كان التركيب الخبر جواباً لزمت الفاء في إنكم، بل لو كان بالفاء في تركيب غير القرآن لم يكن ذلك التركيب =

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾

ثنى ﴿أَنَّكُمْ﴾: للتوكيد، وحسن ذلك؛ لفصل ما بين الأول والثاني بالظرف، ومخرجون: خبر عن الأول، أو جعل: ﴿أَنَّكُمْ مُّخْرَجُونَ﴾: مبتدأ، و﴿إِذَا مِتُّمْ﴾: خبراً، على معنى: إخراجكم إذا متم، ثم أخبر بالجملة عن إنكم، أو رفع ﴿أَنَّكُمْ مُّخْرَجُونَ﴾ بفعل هو جزاء للشرط؛ كأنه قيل: إذا متم وقع إخراجكم، ثم أوقعت الجملة الشرطية خبراً عن إنكم، وفي قراءة ابن مسعود: «أيعدكم إذا متم».

قرئ: (هيهات): بالفتح والكسر والضم، كلها بتنوين وبلا تنوين، وبالسكون على لفظ الوقف.

فإن قلت: ما توعدون هو المستبعد، ومن حقه أن يرتفع بهيهات؛ كما ارتفع في قوله [من الطويل]:

فَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ الْعَقِيقُ وَأَهْلُهُ[1] . . . . . .

فما هذه اللام.

= جائزاً إلا عند الفراء، والبصريون لا يجيزونه وهو عندهم خطأ، قلت يعني أنه إذا توالى شرط وقسم أجيب سابقهما، والقسم هنا متقدم فينبغي أن يُجاب ولا يُجَابُ الشرطُ ولو أُجيبَ الشرطُ لاختلت القاعدة إلا عند بعض الكوفيين فإنه يجيب الشرط وإن تأخر وهو موجودٌ في الشعر. انتهى. الدر المصون.

(١) ويروي البيت:

فهيهات هيهات العقيق ومن به ... وهيهات خل بالعقيق نواصله

لجرير، يتحسر على بعد خليله. وهيهات: اسم فعل بمعنى «بعد» وفتح تائه: لغة الحجاز. وكسرها: لغة تميم. وضمها: لغة بعضهم. وكرره للتوكيد وزيادة التحزن. والعقيق: الوادي الذي شقه السيل، وهو هنا واد بظاهر المدينة المشرفة. مرفوع على الفاعلية بالأول، والثاني لا فاعل له. وأجاز أبو علي الفارسي أنه من باب التنازع، فهو مرفوع بأحدهما، وضميره مستتر في الآخر، فهو توكيد مفرد على الأول، وجملة على الثاني. وأجاز ابن مالك أنه فاعل لهما لاتحادهما لفظاً ومعنى. وانظر كيف ذكر أولاً مكان الأحبة، ثم ذكر من فيه على العموم، ثم ذكر خله على الخصوص، وتدرج في ذلك حتى توصل إلى ذكر الوصال، وهو مقصوده الذاتي، فلله در العرب ما ألطفها صنيعاً، وأدقها عبارة، والخل ـ بالكسر ـ: الخليل، كالحب بمعنى الحبيب. ويروى: العقيق وأهله.

ينظر: ديوانه (٤٧٩)، والهمع (١١١)، وابن يعيش (٤/ ٣٥)، والخصائص (٣/ ٤٢)، والطبري (١٨/ ١٦)، البحر (٦/ ٤٠٥)، والدر المصون (٥/ ١٨٣).

قلت: قال الزجاج في تفسيره: البعدُ لما توعدون، أو بعدٌ لما توعدون فيمن نوّن، فنزله منزلة المصدر[1]، وفيه وجه آخر: وهو أن يكون اللام: لبيان المستبعد ما هو بعد التصويت بكلمة الاستبعاد، كما جاءت اللام في: (هيت لك): لبيان المهيت به.

هذا ضمير لا يعلم ما يعني به إلا بما يتلوه من بيانه، وأصله إن الحياة: ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾، ثم وضع (هي): موضع الحياة؛ لأنّ الخبر يدل عليها ويبينها، ومنه: هي النفس تتحمل ما حملت، وهي العرب تقول ما شاءت، والمعنى: لا حياة إلا هذه الحياة؛ لأن «أن»: النافية دخلت على «هي»: التي في معنى: الحياة، الدالة على الجنس فنفتها، فوازنت «لا»: التي نفت ما بعدها نفي الجنس، ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: يموت بعض ويولد بعض، ينقرض قرن ويأتي قرن آخر، ثم قالوا: ما هود إلا مفتر على الله فيما يدعيه من استنبائه له، وفيما يعدنا من البعث، وما نحن بمصدّقين.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

﴿قَلِيلٍ﴾: صفة للزمان، كقديم وحديث، في قولك: ما رأيته قديماً ولا حديثاً، وفي معناه: عن قريب، و(ما): توكيد قلة المدّة وقصرها، ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾: صيحة جبريل ـ عليه السلام ـ: صاح عليهم فدمّرهم، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: بالوجوب؛ لأنهم قد استوجبوا الهلاك، أو بالعدل من الله، من قولك: فلان يقضي بالحق إذا كان عادلاً في قضاياه: شبههم في دمارهم بالغثاء ٢/ ٣٥أ، وهو: حميل السيل مما بلي واسودّ من العيدان والورق؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [الأعلى: ٥]، وقد جاء مشدّداً في قول امرىء القيس [من الطويل]:

. . . . . مِنَ السَّيْلِ وَالْغُثَّاءِ فَلْكَةُ مِغْزَلِ[2]

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ وقول الزمخشري فمن نونه نَزّلَه منزلة المصدر ليس بواضح، لأنهم قد نوّنوا أسماء الأفعال ولا تقول أنها إذا نوّنت تنزلت منزلة المصادر، قلت: الزمخشري لم يقل كذا إنما قال فمن نونه نزّله منزلة المصدر المصدر لأجل قوله أو بُعْدٌ، فالتنوين علة لتقديره إياه نكرة لا لكونه منزلاً منزلة المصدر، فإنّ أسماء الأفعال ما نوّن منها نكرة، وما لم ينوّن معرفة، نحو صَهْ وصهٍ فقدر الأول بالسكون، والثاني بسكوتٍ ما وقال ابن عطية طوراً يلي الفعل دون لام تقول هيهات مجيء زيد أي بَعُدَ، وأحياناً يكون الفاعل محذوفاً عند اللام كهذه الآية، لتقدير بَعُدَ الوجود لما تُوعَدُونَ ولم يَسْتَجوده الشيخ من حيث قوله حذف الفاعل والفاعل لا يحذف ومن حيث إن فيه حذف المصدر وهو الوجود وإبقاء معموله وهو لِمَا تُوعَدُونَ وهيهات الثاني تأكيدٌ للأول تأكيداً لفظياً، وقد جاء غير مؤكد. انتهى. الدر المصون.

(٢) كأن ذرى رأس المخيم غدوة من السيل والغثاء فلكة مغزل =

بعداً، وسحقاً، ودفراً[1]، ونحوها؛ مصادر موضوعة مواضع أفعالها، وهي من جملة المصادر التي قال سيبويه: نصبت بأفعال لا يستعمل إظهارها، ومعنى (بعداً): بعدوا، أي: هلكوا، يقال: بعد بعداً وبعداً؛ نحو: رشد رشداً ورشداً، و﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: بيان لمن دعى عليه بالبعد؛ نحو: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]، و﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿قُرُونًا﴾: قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: بني إسرائيل، ﴿أَجَلَهَا﴾: الوقت الذي حدّ لهلاكها وكتب.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۖ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿تَتْرَا﴾ فعلى: الألف للتأنيث؛ لأنّ الرسل جماعة، وقرئ: «تترى»: بالتنوين، والتاء: بدل من الواو، كما في: تولج، وتيقور[2]، أي: متواترين واحداً بعد واحد، من الوتر وهو الفرد: أضاف الرسل إليه تعالى وإلى أممهم: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [المائدة: ٣٢]، ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٠١]، لأنّ الإضافة تكون بالملابسة، والرسول ملابس المرسل والمرسل إليه جميعاً، ﴿فَأَتْبَعْنَا﴾: الأمم: أو القرون ﴿بَعْضَهُم بَعْضًا﴾: في الإهلاك، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾: أخباراً يسمر بها ويتعجب منها، الأحاديث: تكون اسم جمع للحديث، ومنه: أحاديث رسول الله ـ ﷺ ـ وتكون جمعاً للأحدوثة: التي هي مثل الأضحوكة والألعوبة والأعجوبة، وهي: مما يتحدّث به الناس تلهياً وتعجباً، وهو المراد ههنا.

= لامرىء القيس من معلقته. وذرى الجبل: أعاليه. والمخيم: أكمة بعينها. ويروى: المخيمر. والغثاء ـ بالضم مشدداً ومخففاً ـ: حميل السيل مما بلي واسود من العيدان والورق. والفلكة: بالفتح. والمغزل: مثلث. يقول: كأن أعالي تلك الأكمة من إحاطة السيل بها واجتماع الغثاء حولها: فلكة مغزل في الاستدارة والارتفاع.
البيت. ينظر في جمهرة أشعار العرب: ٤٧، وديوان الشاعر ٢٥، والبحر ٣٩٣، والدر المصون: ٥/ ١٨٧.

(١) قوله «دفراً» في الصحاح «دفراً له» أي: نتنا. (ع)

(٢) قوله «كما في تولج وتيقور» التولج: كناس الوحش الذي يلج فيه. قال سيبويه: التاء مبدلة من الواو، وهو فوعل، كذا في الصحاح. وفيه أيضاً: التيقور، والوقار. وأصله: ويقور، قلبت الواو تاءاً اهـ، فوزنه «فيعول». (ع)

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾

فإن قلت: ما المراد بالسلطان المبين؟

قلت: يجوز أن تراد العصا؛ لأنها كانت أمّ آيات موسى وأُولاها، وقد تعلقت بها معجزات شتى: من انقلابها حية، وتلقفها ما أفكته السحرة، وانفلاق البحر، وانفجار العيون من الحجر بضربهما بها، وكونها حارساً، وشمعة، وشجرة خضراء مثمرة، ودلواً ورشاء، جعلت كأنها ليست بعضها لما استبدت به من الفضل؛ فلذلك عطفت عليها؛ كقوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة ٩٨:]، ويجوز أن تراد الآيات أنفسها، أي: هي آيات وحجة بينة، ﴿عَالِينَ﴾: متكبرين؛ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤]، ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٨٣]، أو متطاولين على الناس قاهرين بالبغي والظلم.

﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾

البشر يكون واحداً وجمعاً: ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، ﴿لِبَشَرَيْنِ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ﴾ [مريم: ٢٦]، و«مثل»، و«غير» يوصف بهما: الاثنان، والجمع، والمذكر، والمؤنث: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، ويقال ـ أيضاً ـ: هما مثلاه؛ وهم أمثاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يعني: بني إسرائيل، كأنهم يعبدوننا خضوعاً وتذللاً، أو لأنه كان يدعي الإلهية فادعى للناس العبادة، وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: قوم موسى التوراة، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: يعملون بشرائعها ومواعظها، كما قال: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ [يونس: ٨٣]، يريد: آل فرعون، وكما يقولون: هاشم، وثقيف، وتميم، ويراد: قومهم، ولا يجوز أن يرجع الضمير في (لعلهم) إلى فرعون وملئه؛ لأنّ التوراة إنما أوتيها بنو إسرائيل بعد إغراق فرعون وملئه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣].

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾

فإن قلت: لو قيل آيتين هل كان يكون له وجه؟

قلت: نعم؛ لأنّ مريم ولدت من غير مسيس، وعيسى روح من الله ألقي إليها، وقد

تكلم في المهد وكان يحيي الموتى مع معجزات أخر، فكان آية من غير وجه، واللفظ محتمل للتثنية على تقدير: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾: آية، ﴿وَأُمَّهُۥٓ﴾: آية، ثم حذفت الأولى؛ لدلالة الثانية عليها، الربوة والرباوة في رائهما الحركات، وقرئ: «ربوة رباوة»: بالضم، ورباوة بالكسر وهي الأرض المرتفعة، قيل: هي إيليا: أرض بيت المقدس، وأنها كبد الأرض وأقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً: عن كعب، وقيل: دمشق وغوطتها، وعن الحسن: فلسطين والرملة، وعن أبي هريرة: الزموا هذه الرملة رملة فلسطين؛ فإنها الربوة التي ذكرها الله، وقيل: مصر، والقرار: المستقرّ من أرض مستوية منبسطة، وعن قتادة: ذات ثمار وماء، يعني: أنه لأجل الثمار: يستقرّ فيها ساكنوها، والمعين: الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض، وقد اختلف في زيادة ميمه وأصالته، فوجه من جعله مفعولاً أنه مدرك بالعين لظهوره، من عانه: إذا أدركه بعينه؛ نحو: ركبه: إذا ضربه بركبته، ووجه من جعله فعيلاً: أنه نفاع بظهوره وجريه، من الماعون: وهو المنفعة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما، وكيف الرسل؛ إنما أرسلوا متفرّقين في أزمنة مختلفة، وإنما المعنى: الإعلام بأنّ كلّ رسول في زمانه نودي لذلك[1] ووصى به؛ ليعتقد السامع أنّ أمراً نودي له جميع الرسل ووصوا به، حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه، والمراد بالطيبات: ما حل وطاب، وقيل: طيبات الرزق حلال وصاف وقوام، فالحلال ٢/ ٣٥ب: الذي لا يعصى الله فيه، والصافي: الذي لا ينسى الله فيه، والقوام: ما يمسك النفس ويحفظ العقل، أو أريد ما يستطاب ويستلذ من المآكل والفواكه؛ ويشهد له مجيئه على عقب قوله: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [مريم: ٥٠]؛ ويجوز أن يقع هذا الإعلام عند إيواء عيسى ومريم إلى الربوة، فذكر على سبيل الحكاية، أي: آويناهما وقلنا لهما هذا، أي: أعلمناهما أنّ الرسل كلهم خوطبوا بهذا، فكلا مما رزقناكما واعملا صالحاً؛ اقتداء بالرسل.

---

(١) قال محمود: «هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما وكيف والرسل إنما أرسلوا متفرقين في أزمنة مختلفة وإنما المعنى الإعلام بأن كل رسول في زمانه نودي بذلك» قال أحمد: هذه نفحة اعتزالية، فإن مذهب أهل السنة أن الله تعالى متكلم آمر ناه أزلاً، ولا يشترط في تحقق الأمر وجود المخاطب، فعلى هذا قوله: ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ على ظاهره وحقيقته عند أهل الحق، وهو ثابت أزلاً على تقدير وجود المخاطبين فيما لا يزال، متفرقين كما في هذا الخطاب، أو مجتمعين كما في زعمه، والمعتزلة لما أبت اعتقاد قدم الكلام زلت بهم القدم، حتى حملوا هذه الآية وأمثالها على المجاز وخلاف الظاهر. وما بال الزمخشري خص هذه الآية بأنها على خلاف الظاهر ومعتقده يوجب حمل مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وجميع الأوامر العامة في الأمة على خلاف الظاهر.

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾

قرئ: «وإنّ»: بالكسر على الاستئناف، وأنّ بمعنى: ولأنّ، وأن مخففة من الثقيلة، و﴿أُمَّتُكُمْ﴾: مرفوعة معها.

﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾

وقرئ: ﴿زُبُرٌ﴾: جمع زبور، أي: كتباً مختلفة، يعني: جعلوا دينهم أدياناً، وزبراً قطعاً: استعيرت من زبر الفضة والحديد، و«زبراً»: مخففة الباء، كرسل في رسل، أي: كلّ فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطعين دينهم، فرح بباطله، مطمئنّ النفس، معتقد أنه على الحق.

﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾

الغمرة: الماء الذي يغمر القامة؛ فضربت مثلاً لما هم مغمورون فيه من جهلهم وعمايتهم، أو شبهوا باللاعبين في غمرة الماء لما هم عليه من الباطل؛ قال [من البسيط]:

. . . . . كَأَنَّنِي ضَارِبٌ فِي غَمْرَةٍ لَعِبُ[1]

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: في غمراتهم، ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾: إلى أن يقتلوا أو يموتوا.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

سلى رسول الله ـ ﷺ ـ بذلك، ونهى عن الاستعجال بعذابهم والجزع من تأخيره، وقرئ: «يمدّهم»، و«يسارع»، و«يسرع»: بالياء، والفاعل: الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويجوز في: يسارع، ويسرع: أن يتضمن ضمير الممدّ به، ويسارع، مبنياً للمفعول، والمعنى: أنّ هذا الإمداد ليس إلا استدراجاً لهم إلى المعاصي، واستجراراً إلى زيادة الإثم، وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات، وفيما لهم فيه نفع وإكرام، ومعاجلة بالثواب قبل

---

(١) لياليَ اللهو يطبيني فأتبعه كأنني ضارب في غمرة لعب

لذي الرمة. والياليَ: منصوب على الظرفية، واللهو: مبتدأ. وطباه يطبوه ويطبيه: إذا دعاه وجذبه. وطبي الناقة ثديها لجذبه عند الحلب. أي اللهو يدعوني في ليال كثيرة فأتبعه، كأني سابح في لجة من الماء تغمر القامة، لعب فيها فهو خبر ثان. ويروى: لغب، بالمعجمة من اللغوب وهو المشقة. وقيل: «الياليَ» مضاف للجملة بعده، فهو ظرف لما قبله. وروي: اللهو بالجر. وتطبيني بالتاء، فالفاعل ضمير الليالي.

ينظر: ديوانه ص ٣٨، ولسان العرب (ضرب)، (غمر)، (طبي)، وتهذيب اللغة ٨/ ١٢٩، ١٢/ ٢٠، وكتاب العين ٧/ ٣٣، وتاج العروس (ضرب)، (طبي)، وجمهرة أشعار العرب ص ٩٤٦.

وقته، ويجوز أن يراد في جزاء الخيرات كما يفعل بأهل الخير من المسلمين، و﴿بَل﴾: استدراك؛ لقوله: (أيحسبون)، يعني: بل هم أشباه البهائم لا فطنة بهم ولا شعور، حتى يتأملوا ويتفكروا في ذلك: أهو استدراج، أم مسارعة في الخير؟

فإن قلت: أين الراجع من خبر أنّ إلى اسمها إذا لم يستكنّ فيه ضميره؟

قلت: هو محذوف تقديره: نسارع به، ويسارع به، ويسارع الله به؛ كقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، أي: إن ذلك منه؛ وذلك لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾: يعطون ما أعطوا، وفي قراءة رسول الله ـ ﷺ ـ وعائشة: «يأتون ما أتوا» (٩٩٨)، أي: يفعلون ما فعلوا، وعنها أنها قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ الَّذِي يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ وَهُوَ عَلَىٰ ذٰلِكَ يَخَافُ اللَّهَ؟ قَالَ: لا يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ، وَلٰكِنْ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ، وهو على ذلك يخاف الله ألا يقبل منه (٩٩٩)، ﴿يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾: يحتمل معنيين:

---

٩٩٨ ـ أخرجه الحاكم (٢/ ٢٤٦) من حديث عبد الله بن عبيد بن عمير الليثي عن أبيه قال: قلت لعائشة ـ رضي الله عنها ـ: يا أم المؤمنين، كيف كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقرأ هذا الحرف: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾ قالت: أشهد لسمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقرأها: «يؤتون».
ثم قال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

٩٩٩ ـ رواه الترمذي (٥/ ٣٢٧) كتاب التفسير، باب «ومن سورة المؤمنون» حديث (٣١٧٥). وابن ماجه (٢/ ١٤٠٤) كتاب الزهد، باب التوقي على العمل حديث (٤١٩٨) والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤) ثم قال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» اهـ.
وأحمد في المسند (٦/ ١٥٩ ـ ٢٠٥)، والبيهقي في الشعب (١/ ٤٧٧) رقم (٧٦٢)، والطبري في التفسير (٩/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦)، رقم (٢٥٥٥٩ ـ ٢٥٥٦٢)، والبغوي في تفسيره (٣/ ٣١٢)، وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٢١) وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في نعت الخائفين وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.
قال الحافظ: أخرجه الترمذي، وابن ماجه، وأحمد، وإسحاق، وابن أبي شيبة، والحاكم، والبيهقي في الشعب من رواية عبد الرحمن بن سعيد بن وهب الهمذاني عن عائشة قالت: سألت فذكره. قال الترمذي: وقد روي عن عبد الرحمن بن سعيد عن أبي حازم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ اهـ وهذه الطريق أخرجها الطبري بهذا الإسناد أن عائشة قالت: فذكره، وله عنده طريق أخرى عن =

أحدهما: أن يراد يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها.

والثاني: أنهم يتعجلون في الدنيا المنافع ووجوه الإكرام؛ كما قال: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]؛ لأنهم إذا سورع بها لهم، فقد سارعوا في نيلها وتعجلوها، وهذا الوجه أحسن طباقاً للآية المتقدمة؛ لأن فيه إثبات ما نفي عن الكفار للمؤمنين، وقرئ: «يسرعون في الخيرات» ﴿فَا سَـٰبِقُونَ﴾ أي: فاعلون السبق لأجلها أو سابقون الناس لأجلها، أو إياها سابقون، أي: ينالونها قبل الآخرة؛ حيث عجلت لهم في الدنيا[1]، ويجوز أن يكون: (لها سابقون): خبراً بعد خبر، ومعنى (وهم لها): كمعنى قوله [من الرجز]:

. . . . . أَنْـتَ لَـهَـا أَحْـمَـدُ مِـنْ بَـيْـنِ الْـبَـشَـرْ[2]

= عائشة فيها ليث بن أبي سليم وهو ضعيف. وقوله وهو في قراءة النبي ـ ﷺ ـ وعائشة (يأتون ما أتوا): كأنه يشير إلى هذا الحديث، وأخرج منه ما أخرجه الحاكم من طريق عبد الله بن عمير عن أبيه أنه سأل عائشة عن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ كيف كان ـ ﷺ ـ يقرؤها يؤتون: يأتون أو يؤتون؟ قالت: أيهما أحب إليك؟ قال: الذين يأتون ما أتوا. قالت: أشهد أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقرؤها، وكذلك أنزلت. وفي إسناده يحيى بن راشد وهو ضعيف. وله طريق أخرى، عند أحمد من طريق أبي خلف الجمحي: أن عبيد بن عمير سأل عائشة نحوه وفيه إسماعيل بن مسلم المكي. وهو ضعيف. انتهى.

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: ولا يدل لفظ لها سابقون على هذا التفسير لأنَّ سبق الشيء يدل على تقدم السابق على المسبوق فكيف يقول وهم يسبقون الخيرات وهذا لا يصح، قلت ولا أدري عدم الصحة من أي جهة وكأنه تخيل أن السابق يتقدم على المسبوق فكيف يتلاقيان لكنَّه ينبغي أن يقول فكيف يقول هم ينالون الخيرات وهم لا يجامعونها لتقدمهم عليها إلا أن يكون قد سبقه القلم فكيف يدل وهم ينالون وهم يسبقون، وعلى كل تقدير فأين عدم الصحة؟ انتهى. الدر المصون.

(٢) قـصـيـدة رائـقـة صـوغـتـهـا أنـت لـهـا أحـمـد مـن بـيـن الـبـشـر

رائقة: خالية من الحشو والتعقيد. وصوغتها ـ بالتشديد ـ للمبالغة. وأنت لها: أي أهل وكفؤ لها. وأحمد: منادى. ومن بين البشر: متعلق بمحذوف حال، أي: منتخبا من بينهم، ويجوز أن أحمد أفعل تفضيل، كذا قيل. ويروى:

أنـت لـهـا مـنـذر مـن بـيـن الـبـشـر داهـيـة الـدهـر وصـمـاء الـغـبـر

للأعشى الحرمازي، وضمير لها مبهم يفسره قوله «داهية الدهر» أي الشديدة المهمة من شدائده. والصماء الصلبة. والغبر ـ كسبب ـ بمعنى البقية، من غبر إذا بقي، أو من الغبار، أو من الظلمة. وأصل «صماء الغبر»: الحية تسكن في منقع قرب مويهة فلا تقرب. ويضرب بها المثل. والمعنى: أنها تغشى فلا يهتدى إلى التخلص منها. ومنذر: منادى. وروي بدله: أحمد. وقيل: ضمير لها للنبوة.

ينظر: لسان العرب (غبر)، وتاج العروس (غبر)، وتهذيب اللغة (٨/ ١٢٣)، وأساس البلاغة (غبر).

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يعني: أن هذا الذي وصف به الصالحين غير خارج من حدّ الوسع والطاقة، وكذلك كل ما كلفه عباده وما عملوه من الأعمال فغير ضائع عنده، بل هو مثبت لديه في كتاب، يريد: اللوح، أو صحيفة الأعمال ناطق بالحق لا يقرءون منه يوم القيامة إلا ما هو صدق وعدل، لا زيادة فيه ولا نقصان ولا يظلم منهم أحد، أو أراد: إن الله لا يكلف إلا الوسع، فإن لم يبلغ المكلف أن يكون على صفة هؤلاء السابقين بعد أن يستفرغ وسعه ويبذل طاقته، فلا عليه، ولدينا كتاب فيه عمل السابق والمقتصد، ولا نظلم أحداً من حقه ولا نحطه دون درجته، بل قلوب الكفرة في غفلة غامرة لها، ﴿مِّنْ غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي: مما عليه هؤلاء الموصوفون من المؤمنين، ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ﴾: متجاوزة متخطية لذلك، أي: لما وصف به المؤمنون، ﴿وَهُمْ لَهَا﴾: معتادون وبها ضارون، لا يفطمون، عنها حتى يأخذهم الله بالعذاب.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

وحتى هذه هي التي يبتدأ بعدها الكلام، والكلام: الجملة الشرطية، والعذاب: قتلهم يوم بدر، أو الجوع حين دعا عليهم رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَىٰ مُضَرَ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ» (١٠٠٠) فابتلاهم الله بالقحط حتى أكلوا الجيف والكلاب والعظام المحترقة والقدّ[1] والأولاد، الجؤار: الصراخ باستغاثة؛ قال: [الكامل]

جَآرُ سَاعَاتِ النِّيَامِ لِرَبِّهِ

أي: يقال لهم حينئذٍ: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا﴾ ٢/٣٦أ؛ فإن الجؤار غير نافع لكم، ﴿مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾: لا تغاثون ولا تمنعون منا أو من جهتنا، لا يلحقكم نصر ومغوثة، قالوا: الضمير

١٠٠٠ ـ تقدم برقم (٩٧٢).

قال الحافظ: متفق عليه من حديث ابن مسعود، وسيأتي تاماً في تفسير الدخان. انتهى.

---

(١) قوله «والقد» في الصحاح «القد» بالكسر: سير يقد من جلد غير مدبوغ. (ع)

في ﴿بِهِۦ﴾: للبيت العتيق أو للحرم، كانوا يقولون: لا يظهر علينا أحد؛ لأنا أهل الحرم، والذي سوّغ هذا الإضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت، وأنه لم تكن لهم مفخرة إلا أنهم ولاته والقائمون به، ويجوز أن يرجع إلى آياتي، إلا أنه ذكر؛ لأنها في معنى كتابي، ومعنى استكبارهم بالقرآن: تكذيبهم به استكباراً، ضمن مستكبرين معنى مكذبين، فعدّى تعديته، أو يحدث لكم استماعه استكباراً وعتوّاً، فأنتم مستكبرون بسببه، أو تتعلق الباء بسامراً، أي: تستمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه، وكانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون، وكانت عامّة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحراً وشعراً وسبّ رسول الله ـ ﷺ ـ أو يتهجرون، والسامر: نحو الحاضر في الإطلاق على الجمع، وقرئ: «سمراً، وسماراً»، و«تهجرون وتهجرون»: من أهجر في منطقة إذا أفحش، والهجر ـ بالضم ـ: الفحش، ومن هجر الذي هو مبالغة في هجر إذا هذى، والهجر ـ بالفتح ـ: الهذيان.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿ٱلْقَوْلَ﴾: القرآن، يقول: أفلم يتدبروه؛ ليعلموا أنه الحق المبين فيصدّقوا به وبمن جاء به، بل ﴿جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ﴾؛ فلذلك أنكروه واستبدعوه؛ كقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾ [يس: ٦]، أو ليخافوا عند تدبر آياته وأقاصيصه مثل ما نزل بمن قبلهم من المكذبين، أم جاءهم من الأمن ما لم يأت آباءهم؛ حين خافوا الله فآمنوا به وبكتبه ورسله وأطاعوه؟ وآباؤهم: إسماعيل وأعقابه من عدنان وقحطان، وعن النبي ـ ﷺ ـ: «لاَ تَسُبُّوا مُضَرَ وَلاَ رَبِيعَةَ، فَإِنَّهُمَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ، وَلاَ تَسُبُّوا قُسًّا؛ فَإِنَّهُ كَانَ مُسْلِماً، وَلاَ تَسُبُّوا الْحَارِثَ بْنَ كَعْبٍ وَلاَ أَسْدَ بْنَ خُزَيْمَةَ وَلاَ تَمِيمَ بْنَ مُرٍّ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الإِسْلاَمِ، وَمَا شَكَكْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَلاَ تَشُكُّوا فِي أَنْ تُبَّعاً كَانَ مُسْلِماً (١٠٠١)، وروي في

١٠٠١ ـ قال السهيلي في الروض الأنف (١/ ١٠): «وفي الحديث المروي: «لا تسبوا مضر ولا ربيعة؛ فإنهما كانا مؤمنين» ذكره الزبير بن بكار اهـ.

ورواه ابن سعد في الطبقات (١/ ٤٨) قال: أخبرنا خالد بن خداش أخبرنا عبد الله بن وهب قال: أخبرني سعيد بن أبي أيوب عن عبد الله بن خالد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تسبوا مضر، فإنه كان قد أسلم».

وكذا ذكره المتقي الهندي في كنز العمال رقم (٣٣٩٨٧)، وأخرج الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥٠) عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: «كان تبع رجلاً صالحاً، ألا ترى أن الله عز وجل ذم قومه ولم يذمه». وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .اهـ. ووافقه الذهبي.

وروى أحمد (٥/ ٣٤٠) عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «لا تسبوا تبعاً؛ =

أنّ صبة كان مسلماً، وكان على شرطة سليمان بن داود، ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا﴾: محمداً وصحة نسبه، وحلوله في سطة هاشم، وأمانته، وصدقه، وشهامته، وعقله، واتسامه بأنه خير فتيان قريش، والخطبة التي خطبها أبو طالب في نكاح خديجة بنت خويلد، كفى برغائها منادياً.

الجنة: الجنون، وكانوا يعلمون أنه بريء منها وأنه أرجحهم عقلاً وأثقبهم ذهناً، ولكنه جاءهم بما خالف شهواتهم وأهواءهم، ولم يوافق ما نشأوا عليه، وسيط بلحومهم[1]، ودمائهم من اتباع الباطل، ولم يجدوا له مردًا ولا مدفعاً؛ لأنه الحق الأبلج والصراط المستقيم، فأخلدوا إلى البهت، وعوّلوا على الكذب من النسبة إلى الجنون والسحر والشعر.

فإن قلت: قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ فيه أن أقلهم كانوا لا يكرهون الحق.

قلت: كان فيهم من يترك الإيمان به أنفة واستنكافاً من توبيخ قومه، وأن يقولوا: صبأ وترك دين آبائه، لا كراهة للحق، كما يحكى عن أبي طالب[2].

= فإنه قد كان أسلم» والديلمي في مسند الفردوس (٥/ ١٦١) رقم (٧٤٨٤)، ورواه الطبراني في الكبير (٦/ ٢٠٣) رقم (٦٠١٣)، قال في المجمع (٨/ ٧٩): رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه عمرو بن جابر وهو كذاب» اهـ.

قال الحافظ: قلت اقتصر المخرج في عزو الجملة الأولى إلى السهيلي عن الزبير، وتتضمن الباقي. وقد أخرجه ابن سعد والبلاذري من طريق سعد بن أبي أيوب عن عبد الله بن خالد أنه بلغه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا تسبوا مضر؛ فإنه كان مسلماً». وأما تبع فروى الفاكهي من طريق عمر بن جابر عن سهل بن سعد رفعه «لا تسبوا تبعاً فإنه قد أسلم». وأخرجه الحاكم من طريق ابن جريج عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: «كان تبع رجلاً صالحاً. الحديث» موقوف. وقوله: والخطبة التي خطبها أبو طالب في نكاح خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ كفى برغائها منادياً: قلت نص له أيضاً. انتهى.

---

(١) قوله «وسيط بلحومهم» أي: وخلط. (ع)

(٢) قال محمود: «فإن قلت أكثرهم يعطي أن أقلهم لا يكره الحق، وكيف ذلك والكل كفرة؟ قلت: فيهم من أبى الإسلام حذراً من مخالفة آبائه ومن أن يقال صبأ كأبي طالب، لا كراهة للحق» قال أحمد: وأحسن من هذا أن يكون الضمير في قوله: (وأكثرهم) على الجنس للناس كافة، ولما ذكر هذه الطائفة من الجنس بنى الكلام في قوله (وأكثرهم) على الجنس بجملته، كقوله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ وكقوله ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ والنبي ﷺ جاء الناس كلهم وبعث إلى الكافة. ويحتمل أن يحمل الأكثر على الكل كما حمل القليل على النفي والله أعلم. وأما قول الزمخشري ـ: إن من تمادى على الكفر وآثر البقاء عليه تقليداً لآبائه «ليس كارهاً للحق ـ فمردود» فإن من أحب شيئاً كره ضده، =

فإن قلت: يزعم بعض الناس أنّ أبا طالب صحّ إسلامه.

قلت: سبحان الله! كأن أبا طالب كان أخمل أعمام رسول الله ـ ﷺ ـ حتى يشتهر إسلام حمزة والعباس ـ رضي الله عنهما ـ ويخفى إسلام أبي طالب.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾

دل بهذا على عظم شأن الحق، وأنّ السمٰوات والأرض ما قامت ولا من فيهن إلا به، فلو اتبع أهواءهم لانقلب باطلاً، ولذهب ما يقوم به العالم فلا يبقى له بعده قوام، أوأراد أنّ الحق الذي جاء به محمد ـ ﷺ ـ وهو الإسلام، لو اتبع أهواءهم وانقلب شركا، لجاء الله بالقيامة، ولأهلك العالم ولم يؤخر؛ وعن قتادة: أنّ الحق هو الله، ومعناه: ولو كان الله إلٰهاً يتبع أهواءهم ويأمر بالشرك والمعاصي، لما كان إلٰهاً ولكان شيطاناً، ولما قدر أن يمسك السمٰوات والأرض، ﴿بِذِكْرِهِم﴾ أي: بالكتاب الذي هو ذكرهم، أي: وعظهم أو وصيتهم وفخرهم: أو بالذكر الذي كانوا يتمنونه، ويقولون: لو أنّ عندنا ذكراً من الأوّلين لكنا عباد الله المخلصين، وقرئ: «بذكراهم».

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾

قرئ: «خراجاً فخراج»، و«خرجاً فخرج»، و«خرجاً فخراخ»: وهو ما تخرجه إلى الإمام من زكاة أرضك، وإلى كل عامل من أجرته وجُعله، وقيل: الخرج: ما تبرعت به، والخراج: ما لزمك أداؤه، والوجه: أنّ الخرج أخص من الخراج؛ كقولك: خراج القرية، وخرج الكردة؛ زيادة اللفظ لزيادة المعنى؛ ولذلك حسنت قراءة من قرأ: «خرجا فخراج ربك»، يعني: أم تسألهم على هدايتك لهم قليلاً من عطاء الخلق، فالكثير من عطاء الخالق خير.

= فإذا أحبوا البقاء على الكفر فقد كرهوا الانتقال عنه إلى الإيمان ضرورة، والله أعلم. ثم انجر الكلام إلى استبعاد إيمان أبي طالب. وتحقيق القول فيه أنه مات على الكفر، ووجه ذلك بأنه أشهر عمومة النبي ﷺ، فلو كان قد أسلم لاشتهر إسلامه، كما اشتهر إسلام العباس وحمزة وأجدر لأنه أشهر، وللقائل بإسلامه أن يعتذر عن عدم شهرته بأنه إنما أسلم قبيل الاحتضار، فلم يظهر له مواقف في الإسلام يشتهر بها كما ظهر لغيره من عمومته عليه الصلاة والسلام. هذا والظاهر أنه لم يسلم. وحسبك دليلاً على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: سألت الله تعالى فيه، وأنه بعد ذلك لفي ضحضاح من نار يغلي رأسه من قدميه. فإن قيل: لا يلزم من ذلك موته على الكفر؛ لأن كثيراً من عصاة الموحدين يعذب بأكثر من ذلك. قلنا: من أثبت إسلامه ادعى أن ذلك كان قبيل الاحتضار، فالإسلام جب ما قبله، وتلك الدقيقة التي صار فيها من المسلمين لا تحتمل من المعاصي ما يوجب ذلك، والله أعلم.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾

قد ألزمهم الحجة في هذه الآيات وقطع معاذيرهم وعللهم بأن الذي أُرسل إليهم رجل معروف أمره وحاله، مخبور سرّه وعلنه، خليق بأن يجتبى مثله للرسالة من بين ظهرانيهم، وأنه لم يعرض له[1] حتى يدعى بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل، ولم يجعل ذلك سلماً إلى النيل من دنياهم واستعطاء أموالهم، ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام الذي هو الصراط المستقيم، مع إبراز المكنون من أدوائهم، وهو إخلالهم بالتدبر والتأمل، واستهتارهم[2] بدين الآباء الضلال من غير برهان، وتعللهم: بأنه مجنون بعد ظهور الحق وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات النيرة، وكراهتهم ٢/٣٦ب للحق، وإعراضهم عما فيه حظهم من الذكر، يحتمل أنّ هؤلاء وصفتهم أنهم لا يؤمنون بالآخرة، ﴿لَنَاكِبُونَ﴾ أي: عادلون عن هذا الصراط المذكور، وهو قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وأن كل من لا يؤمن بالآخرة فهو عن القصد ناكب؛ لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي ولحق باليمامة، ومنع الميرة من أهل مكة وأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا العلهز[3]، جَاءَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَقَالَ لَهُ: أُنْشِدُكَ اللَّهَ وَالرَّحِمَ، أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ بُعِثْتَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ؟ فَقَالَ: بَلَىٰ، فَقَالَ: قَتَلْتَ الآبَاءَ بِالسَّيْفِ، وَالأَبْنَاءَ بِالْجُوعِ (١٠٠٢).

١٠٠٢ ـ رواه الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٣٧٠) رقم (١٢٠٣٨) حدثنا عيسى بن القاسم الصيدلاني البغدادي ثنا عبد الرحمن بن بشر بن الحكم النيسابوري ثنا علي بن الحسين بن واقد حدثني أبي عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس قال: جاء أبو سفيان بن حرب إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: يا محمد، نشدتك الله والرحم قد أكلنا العلهز ـ يعني الوبر والدم ـ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

وابن حبان في صحيحه (٥/ ٤٢٨) رقم (١٧٥٣ ـ موارد)، والنسائي في التفسير (٢/ ٩٨ ـ ٩٩) رقم (٣٧٢)، وابن جرير الطبري في التفسير (٩/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦) رقم (٢٥٦٣٢)، وعزاه الزيلعي للبيهقي في الدلائل والواحدي في أسباب النزول، وذكره البغوي في التفسير (٣/ ٣١٤)، قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٧٦): «رواه الطبراني وفيه علي بن الحسين بن واقد وثقه النسائي وغيره وضعفه أبو حاتم» اهـ.

---

(١) قوله «لم يعرض» لعله: لم يعرض له جنون. (ع)

(٢) قوله «واستهتارهم بدين الآباء الضلال» في الصحاح: فلان مستهتر بالشراب، أي: مولع به لا يبالي ما قيل فيه. (ع)

(٣) قوله «حتى أكلوا العلهز» في الصحاح «العلهز» بالكسر: طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير في سني المجاعة. (ع)

﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾

والمعنى: لو كشف الله عنهم هذا الضرّ، وهو: الهزال والقحط الذي أصابهم برحمته عليهم ووجدوا الخصب، لارتدوا إلى ما كانوا عليه من الاستكبار وعداوة رسول الله ـ ﷺ ـ والمؤمنين وإفراطهم فيها، ولذهب عنهم هذا الإبلاس، وهذا التملق بين يديه ويسترحمونه، واستشهد على ذلك بأنا أخذناهم أوّلاً بالسيوف، وبما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسرهم، فما وجدت منهم بعد ذلك استكانة ولا تضرع، حتى فتحنا عليهم باب الجوع الذي هو أشدّ من الأسر والقتل وهو أطم العذاب، فأبلسوا الساعة وخضعت رقابهم، وجاء أعتاهم وأشدّهم شكيمة في العناد يستعطفك، أو محناهم بكل محنة من القتل والجوع فما رؤي فيهم لين مقادة وهم كذلك، حتى إذا عذبوا بنار جهنم فحينئذٍ يبلسون؛ كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الروم: ١٢]، ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزخرف: ٧٥]، والإبلاس: اليأس من كل خير، وقيل: السكوت مع التحير.

فإن قلت: ما وزن استكان؟

قلت: استفعل من الكون[1]، أي: انتقل من كون إلى كون، كما قيل: استحال إذا انتقل من حال إلى حال، ويجوز أن يكون افتعل من السكون أشبعت فتحة عينه، كما جاء [من الوافر]:

---

(١) قال محمود: «استكان استفعل من الكون، أي: انتقل من كون إلى كون، كما يقال: استحال، إذا انتقل من حال إلى حال» قال أحمد: هذا التأويل أسلم وأحق من تأويل من اشتقه من السكون وجعله افتعل، ثم أشبعت الفتحة فتولدت الألف كتولدها في قوله:

ينباع من ذفري غضوب جسرة

فإن هذا الإشباع ليس بفصيح، وهو من ضرورات الشعر، فينبغي أن ترفع منزلة القرآن عن ورود مثله فيه، لكن تنظير الزمخشري له باستحال: وهم، فإن استكان على تأويله أحد أقسام استفعل، الذي معناه التحول، كقولهم: استحجر الطين، واستنوق الجمل. وأما استحال فثلاثيه حال يحول، إذا انتقل من حال إلى حال، وإذا كان الثلاثي يفيد معنى التحول لم يبق لصيغة استفعل فيها أثر، فليس استحال من استفعل للتحول ـ ولكنه من استفعل بمعنى فعل، وهو أحد أقسامه، إذ لم يزد السداسي فيه على الثلاثي معنى، والله أعلم. ثم نعود إلى تأويله فنقول: المعنى عليه: فما انتقلوا من كون التكبر والتجبر والاعتياص إلى كون الخضوع والضراعة إلى الله تعالى. ولقائل أن يقول: استكان يفيد على التأويل المذكور الانتقال من كون إلى كون، فليس حمله على أنه انتقال عن التكبر =

فإن قلت: هلا قيل: وما تضرعوا، أو: فما يستكينون؟

قلت: لأنّ المعنى: محناهم فما وجدت منهم عقيب المحنة استكانة، وما من عادة هؤلاء أن يستكينوا ويتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد، وقرئ: «فتحنا».

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾

إنما خصّ السمع والأبصار والأفئدة؛ لأنه يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها، ومقدمة منافعها أن يعملوا أسماعهم وأبصارهم في آيات الله وأفعاله، ثم ينظروا ويستدلوا بقلوبهم، ومن لم يعملها فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، إذ كانوا

= إلى الخضوع بأولى من العكس. وترى هذه الصيغة لا تفهم إلا أحد الانتقالين، فلو كانت مشتقة من مطلق الكون لكانت مجملة محتملة للانتقالين جميعاً. والجواب أن أصلها كذلك على الإطلاق، ولكن غلب العرف على استعمالها في الانتقال الخاص كما غلب في غيرها، والله أعلم. وكان جدي أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير رحمه الله يذكر لي أنه لما دخل بغداد زمن الإمام الناصر رضي الله عنه، أظهر من جملة كراماته له: أن جمع له الوزير جميع علماء بغداد وعقد بهم محفلا للمناظرة، وكان يذكر لي أن مما انجر الكلام إليه حينئذٍ هذه الآية، وأن أحدهم وكان يعرف بالأجل اللغوي خصه الوزير بالسؤال عنها فقال: وهو مشتق من قول العرب: كنت لك إذا خضعت، وهي لغة هذلية فاستحسن منه ذلك. قال أحمد: وقد وقفت عليها بعد ذلك في غريب أبي عبيد العروي وهو أحسن محامل الآية وأسلمها، والله أعلم. وعلى هذا يكون من استفعل بمعنى فعل، كقولهم: استقر واستعلى، وحال واستحال على ما مر. وقد قال لي بعضهم يوماً: لم لا تجعله على هذا التأويل من استفعل المبني للمبالغة. مثل استحسر واستعصم من حسر وعصم، فقلت: لا يسعني ذلك؛ لأن المعنى يأباه، وذلك أنها جاءت في النفي والمقصود منها ذم هؤلاء بالجفوة والقسوة وعدم الخضوع، مع ما يوجب نهاية الضراعة من أخذهم بالعذاب، فلو ذهبت إلى جعلها للمبالغة أفادت نقص المبالغة، لأن نفي الأبلغ أدنى من نفي الأدنى، وكأنهم على ذلك ذموا بنفي الخضوع الكثير، وأنهم ما بلغوا في الضراعة نهايتها، وليس الواقع؛ فإنهم ما اتسموا بالضراعة ولا بلمظة منها، فكيف تنفي عنهم النهاية الموهمة لحصول البداية، والله أعلم.

(١) قوله «كما جاء بمنتزاح» أي في قوله:

وأنت من الغوائل حين ترمي ... وعن ذم الرجال بمنتزاح

اهـ عليان.

قلت: وقد تقدم شرح هذا الشاهد.

يجحدون بآيات الله، ومقدمة شكر النعمة فيها الإقرار بالمنعم بها، وألاَّ يجعل له ندّ ولا شريك، أي: تشكرون شكراً قليلاً، و﴿مَّا﴾: مزيدة للتأكيد بمعنى: حقًّا، ﴿ذَرَأَكُمْ﴾: خلقكم وبثكم بالتناسل، ﴿وَإِلَيْهِ﴾: تجمعون يوم القيامة بعد تفرّقكم، ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: هو مختص به وهو متوليه، ولا يقدر على تصريفهما غيره، وقرئ: «يعقلون»: بالياء عن أبي عمرو.

﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾

أي: قال أهل مكة كما قال الكفار قبلهم، الأساطير: جمع أسطار: جمع سطر؛ قال رؤبة [من الرجز]:

إِنِّي وَأَسْطَارٍ سُطِرْنَ سَطْرَا[1] . . . . . .

وهي: ما كتبه الأوّلون مما لا حقيقة له، وجمع أسطورة أوفق.

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ

---

(١) إني وأسطار سطرن سطرا لقائل: يا نصر نصر نصرا

لرؤبة بن العجاج. والمراد بالأسطار: الكتابة، وهي جمع سطر بالتحريك، وأصله مصدر كالساكن الوسط. وسطرن: مبني للمجهول. وسطراً: مصدر. ولقائل: خبر «إني» وما بينهما جملة قسمية اعتراضية. ونصر: مبني على الضم، وهو ابن سيار ملك خراسان. ونصر الثاني توكيد لفظي، مرفوع على اللفظ. والثالث كذلك نصب على المحل لأنه كان مفردا معرفة لأنه تابع. أو هو مصدر نائب عن فعله. أي انصرني نصراً. وقيل «نصر» الثاني بالضاد المعجمة على أنه علم لصاحب نصر الأول، فهو على حذف العاطف. عن أبي عبيدة: والمنقول أن الذي بالضاد المعجمة هو الثالث، كان حاجباً لنصر، واشتكاه له الشاعر فنصبه على الإغراء. والمعنى على الأول: وحق الكتاب المسطور إني لمستغيث به لا بغيره.

ينظر ديوانه ص ١٧٤، ولسان العرب (نصر)؛ وتاج العروس (نصر)، ومقاييس اللغة ٥/٤٣٦، ومجمل اللغة ٤/٤٠٨، وخزانة الأدب ٢/٢١٩، والخصائص ١/٣٤٠، والدرر ٤/٢٢، وشرح شواهد الإيضاح ص ٢٤٣، وشرح المفصل ٢/٣، والكتاب ٢/١٨٥، ١٨٦، ولذي الرمة في شرح شذور الذهب ص ٥٦٤، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في لسان العرب (سطر)، وتهذيب اللغة ١٢/ ٣٢٧، وتاج العروس (سطر)، (نصر)، (الياء)، وأسرار العربية ص ٢٩٧، والأشباه والنظائر ٤/ ٨٦، والدرر ٦/٢٦، ومغني اللبيب ٢/٣٨٨، والمقاصد النحوية ٤/٢٠٩، والمقتضب ٤/٢٠٩، وهمع الهوامع ١/٢٤٧، ٢/١٢١.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

أي: أجيبوني عما استعلمتكم منه[1] إن كان عندكم فيه علم، وفيه استهانة بهم وتجويز لفرط جهالتهم بالديانات: أن يجهلوا مثل هذا الظاهر البين، وقرئ: «تذكرون»: بحذف التاء الثانية[2]، ومعناه: أفلا تتذكرون فتعلموا أنّ من فطر الأرض ومن فيها اختراعاً، كان قادراً على إعادة الخلق، وكان حقيقاً بألاّ يشرك به بعض خلقه في الربوبية، قرئ: «الأوّل»: باللام لا غير، والأخيران: باللام، وهو هكذا في مصاحف أهل الحرمين والكوفة والشام، وبغير اللام: وهو هكذا في مصاحف أهل البصرة، فباللام على المعنى؛ لأن قولك من ربه، ولمن هو: في معنى واحد، وبغير اللام على اللفظ، ويجوز قراءة الأوّل بغير لام، ولكنها لم تثبت في الرواية، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: أفلا تخافونه فلا تشركوا به وتعصوا رسله، أجرت فلاناً على فلان: إذا أغثته منه ومنعته، يعني: وهو يغيث من يشاء ممن يشاء، ولا يغيث أحد منه أحداً، ﴿تُسْحَرُونَ﴾: تخدعون عن توحيده وطاعته، والخادع: هو الشيطان والهوى.

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾

وقرئ: «أتيتهم وأُتيتهم»: بالفتح والضم، ﴿بِالْحَقِّ﴾: بأن نسبة الولد إليه محال والشرك باطل، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾؛ حيث يدعون له ولداً ومعه شريكاً، ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾: لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه واستبدّ به، ولرأيتم ملك كل واحد منهم متميزاً من ملك الآخرين، ولغلب بعضهم بعضاً؛ كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متمايزة وهم متغالبون، ٢/ ٣٧أ وحين لم تروا أثراً لتمايز الممالك وللتغالب، فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء.

فإن قلت: إذا: لا تدخل إلا على كلام هو جزاء وجواب، كيف وقع قوله: لذهب جزاء وجواباً، ولم يتقدّمه؛ شرط ولا سؤال سائل؟

قلت: الشرط محذوف تقديره: ولو كانت معه آلهة. وإنما حذف لدلالة قوله: ﴿وَمَا

(١) قوله «عما استعلمتكم منه» لعله «عنه». (ع)
(٢) قوله «وقرىء (تذكرون) بحذف التاء الثانية» يفيد أن القراءة المشهورة (تذكرون) بالتشديد. (ع)

﴿كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، عليه، وهو جواب لمن معه المحاجة من المشركين ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾: من الأنداد والأولاد، ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾: بالجرّ صفة لله، وبالرفع: خبر مبتدأ محذوف.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

ما والنون: مؤكدتان، أي: إن كان لا بد من أن تريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا أو في الآخرة ﴿فَلَا تَجْعَلْنِى﴾: قرينا لهم ولا تعذبني بعذابهم، عن الحسن: أخبره الله أن له في أمته نقمة ولم يخبره أفي حياته أم بعد موته، فأمره أن يدعو بهذا الدعاء.

فإن قلت: كيف يجوز أن يجعل الله نبيه المعصوم مع الظالمين، حتى يطلب ألاَّ يجعله معهم؟

قلت: يجوز أن يسأل العبد ربه ما علم أنه يفعله، وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله؛ إظهاراً للعبودية، وتواضعاً لربه، وإخباتاً له، واستغفاره ـ ﷺ ـ إذا قام من مجلسه سبعين مرة أو مائة مرة لذلك، وما أحسن قول الحسن في قول أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنهما ـ: «وليتكم ولست بخيركم» (١٠٠٣) كان يعلم أنه خيرهم، ولكن المؤمن يهضم نفسه، وقرئ: «إما ترئنهم»: بالهمز[1]، مكان تريني، كما قرئ: «فإما ترئن»، و«لترؤن الجحيم»، وهي ضعيفة، وقوله: (رب): مرتين قبل الشرط وقبل الجزاء، حث على فضل تضرع وجؤار، كانوا ينكرون الموعد بالعذاب ويضحكون منه واستعجالهم له لذلك، فقيل لهم: إن الله قادر على إنجاز ما وعد إن تأملتم، فما وجه هذا الإنكار؟

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾

١٠٠٣ ـ رواه ابن هشام في السيرة: عن ابن إسحاق حدثني الزهري قال: حدثني أنس بن مالك قال: لما بويع أبو بكر... فذكر حديثاً طويلا وفيه. ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني... إلخ. كما في السيرة (٤/ ٣٦٩) رقم (٢١٠٠).
ورواه ابن سعد في الطبقات (٣/ ١٨٢) عن عروة عن أبيه مرسلاً.
وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٢/ ٤٠٦) للدارقطني في كتابه المؤتلف والمختلف وفي غرائب مالك وأبي عبيد في كتاب الأموال والواقدي في آخر كتاب المغازي.

---

(١) قوله «وقرىء إما ترئنهم بالهمزة» في نسخة أخرى: إما ترئني بالهمز، كما قرىء... إلخ». (ع)

«وأبلغ من أن يقال: بالحسنة السيئة؛ لما فيه من التفضيل، كأنه قال: ادفع بالحسنى السيئة، والمعنى: الصفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الإحسان، حتى إذا اجتمع الصفح والإحسان وبذل الاستطاعة فيه: كانت حسنة مضاعفة بإزاء سيئة، وهذه بقضية قوله: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1]، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هي شهادة أن لا إله إلا الله، والسيئة: الشرك، وعن مجاهد: السلام: يسلم عليه إذا لقيه، وعن الحسن: الإغضاء والصفح، وقيل: هي منسوخة بآية السيف، وقيل: محكمة؛ لأنّ المداراة محثوث عليها ما لم تؤدّ إلى ثلم دين وإزراء بمروءة، ﴿بِمَا يَصِفُونَ﴾: يما يذكرونه من أحوالك بخلاف صفتها، أو بوصفهم لك وسوء ذكرهم، والله أعلم بذلك منك وأقدر على جزائهم.

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾

الهمز: النخس، والهمزات: جمع المرّة منه، ومنه: مهماز الرائض، والمعنى: أنّ الشياطين يحثون الناس على المعاصي ويغرونهم عليها، كما تهمز الراضة الدواب حثًّا لها على المشي، ونحو الهمز: الأزّ؛ في قوله تعالى: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾: أمر بالتعوّذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربه، المكرّر لندائه، وبالتعوذ من أن يحضروه أصلاً ويحوموا حوله،

---

(١) قال محمود: «هذا أبلغ من أن يقال: ادفع بالحسنة السيئة، لما فيه من التفضيل كأنه قال: ادفع بالحسنى السيئة، والمعنى: الصفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الإحسان، حتى إذا اجتمع الصفح والإحسان وبذل الاستطاعة فيه، كانت حسنة مضاعفة بإزاء سيئة، وهذه قضية قوله: بالتي هي أحسن، قال أحمد: ما ذكره تقريراً للمفاضلة عبارة عن الاشتراك في أمر والتميز بغيره، ولا اشتراك بين الحسنة والسيئة؛ فإنهما ضدان متقابلان، فكيف تتحقق المفاضلة؟ قلت: المراد أن الحسنة من باب الحسنات، أزيد من السيئة من باب السيئات، فتجيء المفاضلة مما هو أعم من كون هذه حسنة وهذه سيئة. وذلك شأن كل مفاضلة بين ضدين، كقولهم: العسل أحلى من الخل، يعنون أنه في الأصناف الحلوة أميز من الخل في الأصناف الحامضة. وليس لأن بينهما اشتراكاً خاصاً. ومن هذا القبيل ما يحكى عن أشعب الماجن أنه قال: نشأت أنا والأعمش في حجر فلان، فما زال يعلو وأسفل حتى استوينا، بمعنى أنهما استويا في بلوغ كل منهما الغاية: أشعب بلغ الغاية على السفلة. والأعمش: بلغ الغاية على العلية، هذا تفسير كلامه عن نفسه، ونعود إلى الآية فنقول: هي تحتمل وجهاً آخر من التفضيل أقرب متناولاً: وهو أن تكون المفاضلة بين الحسنات التي تدفع بها السيئة، فإنها قد تدفع بالصفح والإغضاء، ويقنع في دفعها بذلك، وقد يزاد على الصفح الإكرام وقد تبلغ غايته ببذل الاستطاعة، فهذه الأنواع من الدفع كلها دفع بحسنة، ولكن أحسن هذه الحسنات في الدفع هي الأخيرة، لاشتمالها على عدد من الحسنات، فأمر النبي ﷺ بأحسن الحسنات في دفع السيئة، فعلى هذا تجري المفاضلة على حقيقتها من غير حاجة إلى تأويل، والله أعلم. فتأمله فإنه حسن جدا.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: عند تلاوة القرآن، وعن عكرمة: عند النزع.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿حَتَّىٰٓ﴾: يتعلق بيصفون، أي: لا يزالون على سوء الذكر إلى هذا الوقف، والآية فاصلة بينهما على وجه الاعتراض والتأكيد للإغضاء عنهم، مستعيناً بالله على الشيطان أن يستزله عن الحلم ويغريه على الانتصار منهم، أو على قوله: وإنهم لكاذبون[1]: خطاب الله بلفظ الجمع للتعظيم؛ كقوله [من الطويل]:

فَإِنْ شِئْتُ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمُ[2] . . . . . .

وقوله [من الطويل]:

أَلاَ فَارْحَمُونِي يَا إِلٰهَ مُحَمَّدٍ[3] . . . . . .

إذا أيقن بالموت واطلع على حقيقة الأمر، أدركته الحسرة على ما فرّط فيه من الإيمان والعمل الصالح فيه، فسأله ربه الرجعة، وقال: ﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾: في الإيمان الذي تركته، والمعنى: لعلي آتي بما تركته من الإيمان، وأعمل فيه صالحاً، كما تقول: لعلي أبني على أس، تريد: أُأسس أسا وأبني عليه، وقيل: فيما تركت من المال، وعن النبي ـ ﷺ ـ: «إِذَا عَايَنَ الْمُؤْمِنُ الْمَلائِكَةَ قَالُوا: نُرْجِعُكَ إِلَى الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: إِلَىٰ دَارِ الْهُمُومِ وَالأَحْزَانِ! بَلْ قُدُوماً إِلَى اللَّهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَقُولُ: رَبِّ ٱرْجِعُونِ» (١٠٠٤)،

١٠٠٤ ـ أخرجه ابن جرير (٩/ ٢٤٢) حدثنا القاسم قال: ثنا الحسين قال: ثنى حجاج عن ابن جريج قال: قال النبي ـ ﷺ ـ لعائشة: «إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا: نرجعك إلى الدنيا؟ فيقول: إلى دار الهموم والأحزان فيقول بل قدماني إلى الله وأما الكافر فيقال: نرجعك؟ فيقول: لعلي أعمل صالحاً =

---

(١) قوله «أو على قوله: وإنهم لكاذبون» لعله عطف على المعنى، كأنه قال فيما مر: حتى رد على قوله (يصفون). قال هنا: أو على قوله: (وإنهم لكاذبون). (ع)

(٢) تقدم.

(٣) ألا فارحموني يا إله محمد فإن لم أكن أهلاً فأنت له أهل

«ألا» استفتاحية دالة على الاهتمام بما يعقبها من الكلام، وخاطب الإله الواحد الأحد بخطاب الجمع جرياً على عادة العرب من خطاب السادة والملوك بذلك تعظماً. وقيل: هو إشارة إلى تكرار الفعل للتوكيد، كأنه قيل: ارحمني ارحمني ارحمني، وإضافته إلى محمد ﷺ للتوسل به إلى الله عز وجل، فإن لم أكن أهلاً لهذا الطلب أو المطلوب من الرحمة والرفق، فأنت يا الله أهل له.
ينظر: البحر (٦/ ٤٢١)، وروح المعاني (١٨/ ٦٣)، والدر المصون (٥/ ٢٠٠).

﴿كَلَّآ﴾: ردع عن طلب الرجعة، وإنكار واستبعاد، والمراد بالكلمة: الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض؛ وهي قوله: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُ﴾، ﴿هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾: لا محالة، لا يخليها ولا يسكت عنها؛ لاستيلاء الحسرة عليه وتسلط الندم، أو هو قائلها وحده لا يجاب إليها ولا تسمع منه، ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ﴾ والضمير: للجماعة، أي: أمامهم حائل بينهم وبين الرجعة إلى يوم البعث، وليس المعنى: أنهم يرجعون يوم البعث؛ وإنما هو إقناط كلي لما علم أنه لا رجعة يوم البعث إلا إلى الآخرة.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾

الصور ـ بفتح الواو ـ: عن الحسن، والصور ـ بالكسر والفتح ـ: عن أبي رزين، وهذا دليل لمن فسر الصور بجمع الصورة، ونفى الأنساب: يحتمل أنّ التقاطع يقع بينهم، حيث يتفرّقون معاقبين ومثابين، ولا يكون التواصل بينهم والتألف إلا بالأعمال، فتلغوا الأنساب وتبطل، وأنه لا يعتدّ بالأنساب؛ لزوال التعاطف والتراحم بين الأقارب؛ إذ يفرّ المرء من أخيه وأمّه وأبيه وصاحبته وبنيه، وعن ابن مسعود: «ولا يساءلون»: بإدغام التاء في السين.

فإن قلت ٢/ ٣٧ب: قد ناقض هذا ونحو قوله: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ١٠﴾ [المعارج: ١٠]، قوله: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٧﴾ [الصافات: ٢٧][1]، وقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [يونس: ٤٥]، فكيف التوفيق بينهما؟

قلت: فيه جوابان:

أحدهما: أن يوم القيامة مقداره خمسون ألف سنة، ففيه أزمنة وأحوال مختلفة يتساءلون ويتعارفون في بعضها، وفي بعضها لا يفطنون لذلك لشدّة الهول والفزع[2].

= فيما تركت» الآية.

قال الزيلعي (٣/ ٤٠٧): «وذكره الثعلبي عن عائشة مرفوعاً من غير سند» اهـ.

---

(١) قال محمود: «إن قلت قد ناقض هذا قوله: فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون» قال أحمد: يجب أن لا يسلك هذا المسلك في إيراد الأسئلة عن فوائد الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. وسؤال الأدب أن يقال: قصر فهمي عن الجمع بين هاتين الآيتين، فما وجهه؟ ولو سأل سائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن شيء من كتاب الله تعالى بهذه الصيغة لأوجع ظهره بالدرة.

(٢) عاد كلامه إلى جواب السؤال. قال: «وجه الجمع بينهما أن يحمل ذلك على اختلاف موقف القيامة» قال أحمد: وكثيراً ما ينتهز الزمخشري الفرصة في إنكار الشفاعة ويشمر ذيله للرد على =

والثاني: أنّ التناكر يكون عند النفخة الأولى، فإذا كانت الثانية، قاموا فتعارفوا وتساءلوا.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

عن ابن عباس: الموازين: جمع موزون، وهي الموزونات من الأعمال، أي: الصالحات، التي لها وزن وقدر عند الله؛ من قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]، ﴿فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾: بدل من خسروا أنفسهم، ولا محلّ للبدل والمبدل منه؛ لأنّ الصلة لا محلّ لها، أو خبر بعد خبر لأولئك، أو خبر مبتدأ محذوف، ﴿تَلْفَحُ﴾: تسفع، وقال الزجاج: اللفح والنفح واحد، إلا أنّ اللفح أشدّ تأثيراً، والكلوح: أن تتقلص الشفتان وتتشمرا عن الأسنان؛ كما ترى الرءوس المشوية، وعن مالك بن دينار: كان سبب توبة عتبة الغلام أنه مرّ في السوق برأس أخرج من التنور فغشي عليه ثلاثة أيام ولياليهنّ، وروي عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «تَشْوِيهِ النَّارُ فَتَقْلَصُ شَفَتُهُ الْعُلْيَا حَتَّىٰ تَبْلُغَ وَسَطَ رَأْسِهِ، وَتَسْتَرْخِي شَفَتُهُ السُّفْلَىٰ حَتَّىٰ تَبْلُغَ سُرَّتَهُ» (١٠٠٥)، وقرئ: «كلحون».

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾

١٠٠٥ ـ رواه الترمذي (٥/ ٣٢٨) كتاب التفسير، باب ومن سورة المؤمنون حديث (٣١٧٦) حدثنا سويد أخبرنا عبد الله بن المبارك عن سعيد بن يزيد أبي شجاع عن أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «وهم فيها كالحون» قال: تشويه النار، فتقلص شفته العالية حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته.
وأحمد في المسند (٣/ ٨) والحاكم (٢/ ٣٩٥)، وأبو يعلى في مسنده (٢/ ٥١٦) رقم (١٣٦٧)، وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٣١)، وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في صفة النار وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية.
قال الحافظ: أخرجه الترمذي وأحمد والبيهقي في الشعب من رواية أبي السمح عن الهيثم بن أبي سعيد. انتهى.

= القائلين بها إذا انتهى إلى مثل قوله: ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾، ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾. ويتغافل حينئذٍ عن طريق الجمع بين ما ظاهره نفي الشفاعة وبين ما ظاهره ثبوتها، بحمل الأمر على اختلاف الأحوال في القيامة، والله الموفق.

﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا﴾: ملكتنا، من قولك: غلبني فلان على كذا: إذا أخذه منك وامتلكه، والشقاوة: سوء العاقبة التي علم الله أنهم يستحقونها بسوء أعمالهم، قرئ: (شقوتنا)، وشقاوتنا بفتح الشين وكسرها فيهما، ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا﴾: ذلوا فيها وانزجروا كما تنزجر الكلاب إدا زجرت، يقال: خسأ الكلب وخسأ بنفسه[1]، ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾: في رفع العذاب، فإنه لا يرفع ولا يخفف، قيل: هو آخر كلام يتكلمون به، ثم لا كلام بعد ذلك إلا الشهيق والزفير والعواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون، وعن ابن عباس: إنّ لهم ست دعوات: إذا دخلوا النار قالوا ألف سنة: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ فيجابون: ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾، فينادون ألفاً: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾، فيجابون: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾، فينادون ألفاً: ﴿بَمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾، فيجابون: ﴿إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾، فينادون ألفاً: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾، فيجابون: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟﴾، فينادون ألفاً: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا﴾، فيجابون: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾، فينادون ألفاً: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾، فيجابون: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا﴾.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾

في حرف أبيّ: أنه كان فريق، بالفتح، بمعنى: لأنه.

السخريّ ـ بالضم والكسر ـ: مصدر سخر كالسخر، إلا أن في ياء النسب زيادة قوّة في الفعل، كما قيل: الخصوصية في الخصوص، وعن الكسائي والفراء: أنّ المكسور من الهزء، والمضموم من السخرة والعبودية، أي: تسخروهم واستعبدوهم، والأوّل: مذهب الخليل وسيبويه، قيل: هم الصحابة، وقيل: أهل الصفة خاصة، ومعناه: اتخذتموهم هزؤا وتشاغلتم بهم ساخرين، ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ﴾: بتشاغلكم بهم على تلك الصفة، ﴿ذِكْرِى﴾: فتركتموه، أي: تركتم أن تذكروني فتخافوني في أوليائي، وقرئ: (أنهم): بالفتح، فالكسر، استئناف، أي: قد فازوا؛ حيث صبروا، فجزوا بصبرهم أحسن الجزاء، وبالفتح على أنه مفعول جزيتهم؛ كقولك: جزيتهم فوزهم.

﴿قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾

---

(١) قوله «يقال خسأ الكلب... إلخ» في الصحاح: خسأت الكلب وخسأ بنفسه: يتعدى ولا يتعدى. (ع)

﴿قَٰلَ﴾: في مصاحف أهل الكوفة، «وقل»: في مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام، ففي (قال): ضمير الله أو المأمور بسؤالهم من الملائكة، وفي (قل): ضمير الملك أو بعض رؤساء أهل النار.

استقصروا مدّة لبثهم في الدنيا بالإضافة إلى خلودهم ولما هم فيه من عذابها؛ لأن الممتحن يستطيل أيام محنته ويستقصر ما مرّ عليه من أيام الدعة إليها، أو لأنهم كانوا في سرور، وأيام السرور قصار، أو لأنّ المنقضي في حكم ما لم يكن، وصدقهم الله في تقالهم لسني لبثهم في الدنيا ووبخهم على غفلتهم التي كانوا عليها، وقرئ: ﴿فسل العادين﴾، والمعنى: لا نعرف من عدد تلك السنين إلا أنا نستقله ونحسبه يوماً أو بعض يوم؛ لما نحن فيه من العذاب، وما فينا أن نعدّها، فسل من فيه أن يعدّ، ومن يقدر أن يلقى إليه فكره، وقيل: فسل الملائكة الذين يعدّون أعمار العباد ويحصون أعمالهم، وقرئ: «العادِين»: بالتخفيف، أي: الظلمة؛ فإنهم يقولون كما نقول، وقرئ: «العاديين»، أي: القدماء المعمرين؛ فإنهم يستقصرونها، فكيف بمن دونهم؟ وعن ابن عباس: أنساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفختين.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾

﴿عَبَثًا﴾: حال، أي عابثين؛ كقوله: ﴿لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦]. أو مفعول له، أي: ما خلقناكم للعبث، ولم يدعنا إلى خلقكم إلا حكمة اقتضت ذلك، وهي: أن نتعبدكم ونكلفكم المشاق من الطاعات وترك المعاصي، ثم نرجعكم من دار التكليف ٢/ ٣٨أ إلى دار الجزاء، فنثيب المحسن ونعاقب المسيء، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾: معطوف على: ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾، ويجوز أن يكون معطوفاً على: (عبثاً)، أي: للعبث، ولترككم غير مرجوعين، وقرئ: (ترجعون): بفتح التاء[1]، ﴿ٱلْحَقُّ﴾: الذي يحق له الملك؛ لأن كل شيء منه وإليه، أو الثابت الذي لا يزول ولا يزول ملكه، وصف العرش بالكرم؛ لأن الرحمة تنزل منه والخير والبركة، أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين، كما يقال: بيت كريم: إذا كان ساكنوه كراما، وقرئ: «الكريم»: بالرفع؛ ونحوه: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج:

(١) قوله «وقرىء ترجعون بفتح التاء» عبارة النسفي: بفتح التاء وكسر الجيم. (ع)

١٥]، ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾؛ كقوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٥١]، وهي: صفة لازمة؛ نحو قوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، جيء بها للتوكيد لا أن يكون في الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان[1]، ويجوز أن يكون اعتراضاً بين الشرط والجزاء؛ كقولك: من أحسن إلى زيد لا أحق بالإحسان منه، فالله مثيبه، وقرئ: أنه لا يفلح بفتح الهمزة، ومعناه: حسابه عدم الفلاح، والأصل: حسابه أنه لا يفلح هو، فوضع الكافرون موضع الضمير؛ لأنّ (من يدع): في معنى الجمع؛ وكذلك: (حسابه.. إنه لا يفلح) في معنى حسابهم.... إنهم لا يفلحون.

جعل فاتحة السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾، وأورد في خاتمتها: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمُؤْمِنُونَ بَشَّرَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ بِالرَّوْحِ وَالرَّيْحَانِ وَمَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُهُ عِنْدَ نُزُولِ مَلَكِ الْمَوْتِ» (١٠٠٦).

وروي: «أنّ أوّل سورة قد أفلح وآخرها من كنوز العرش، من عمل بثلاث آيات من أوّلها، واتعظ بأربع آيات من آخرها: فقد نجا وأفلح» (١٠٠٧).

وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا نزل عليه الوحي يسمع عنده دويّ كدوي النحل، فمكثنا ساعة، فاستقبل القبلة ورفع يده وقال: «اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلاَ تَنْقُصْنَا، وَأَكْرِمْنَا وَلاَ تُهِنَّا، وَأَعْطِنَا وَلاَ تَحْرِمْنَا، وَآثِرْنَا وَلاَ تُؤْثِرْ عَلَيْنَا، وَارْضَ عَنَّا

١٠٠٦ ـ تقدم برقم (٣٤٦).
١٠٠٧ ـ قال الزيلعي (٢/ ٤٠٩): «غريب جداً».
وقال ابن حجر: «لم أجده».

---

(١) قال محمود: «لا برهان له به: إما صفة لازمة، أو كلام معترض لأن في الصفة إفهاماً لأن إلٰها سوى الله يمكن أن يكون به برهان» قال أحمد: إن كان صفة فالمقصود بها التهكم بمدعي إلٰه مع الله، كقوله: ﴿بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ فنفى إنزال السلطان به وإن لم يكن في نفس الأمر سلطان لا منزل ولا غير منزل، ومن جنس مجيء الجملة بعد النكرة وصرفها عن أن تكون صفة لها: ما قدمه عند قوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ﴾ حيث أعرب الزمخشري موعدا مصدراً ناصباً لمكانا سوى، واعترضه بأن المصدر الموصوف لا يعمل إلا على كره، واعتذرت عنه بصرف الجملة على أن تكون صفة وجعلها معترضة مؤكدة لمعنى الكلام، والله أعلم.

وَأَرْضِنَا» ثم قال: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ عَشْرُ آيَاتٍ مَنْ أَقَامَهُنَّ، دَخَلَ الْجَنَّةَ» ح ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ حتى ختم العشر (١٠٠٨).

١٠٠٨ ـ أخرجه الترمذي (٥/ ٣٢٦) كتاب التفسير باب ومن سورة المؤمنون حديث (٣١٧٣)، وأحمد (١/ ٣٤)، والحاكم (٢/ ٣٩٢) في المستدرك تفسير سورة المؤمنون، وعبد الرزاق في المصنف (٣/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤) رقم (٦٠٣٨)، وعبد بن حميد في مسنده رقم (١٥ ـ منتخب)، والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٤٦٠) ترجمة يونس بن سليم، وعزاه الزيلعي للبزار وإسحاق بن راهويه في مسنديهما.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» اهـ.
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الترمذي، والنسائي، وعبد الرزاق، والحاكم، وأحمد، وإسحاق، وابن أبي شيبة، وعبد، كلهم من رواية يونس بن سليم الصنعاني عن يونس عن الزهري عن عروة عن عبد الرحمن بن عبد عن عمر. قال النسائي: هذا حديث منكر، تفرد به يونس بن سليم ولا أعرفه. وقال ابن أبي حاتم عن أبيه: لا أعرفه ولا أعرف هذا الحديث عن الزهري وقال الترمذي. وقال العقيلي: لا يتابع عليه يونس بن سليم ولا يعرف إلا به، وبنحوه قال ابن عدي. وسئل عبد الرزاق عن شيخه يونس بن سليم هذا فقال: أظنه لا شيء. انتهى.